كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة ابن زهر
أكادير

شعبة التاريخ والجغرافيا
تخصص: تاريخ

بحث لنيل الإجازة

النظام الفيودالي: الخصائص والمميزات

إعداد الطالبين:
-بهات عبد الله
-المجيدري لحبيب

تحت إشراف الأستاذ:
-الدكتور الطاهر بلمهدي

السنة الجامعية
1426/1425 هـ
2005/2004 م

إهداء

❖ إلى الوالدين الكريمين

كلمة شكر

نتقدم بالشكر والإمتنان للأستاذ الجليل الطاهر بلمهدي على كل

ما قدم لنا من توجيهات ومساعدات كان لها بالغ الأثر في إخراج هذا العمل

المتواضع إلى الوجود.

كما نشكر من ساهم في إنجاز هذا العمل من قريب أو بعيد.

مدخل عام

لا شك أن الحديث عن الفترة التي اصطلح على تسميتها بالعصور الوسطى، حديث شائك وطويل يبتدأ من إشكالية تحديد بداية ونهاية هذه العصور، مرورا بالأحداث والتغييرات السياسية والإقتصادية والإجتماعية التي حدثت فيها، وانتهاء بالتطورات العلمية والتقنية والثقافية التي ميزت جانبا طويلا من هذه العصور انبثقت عنها نهضات علمية عديدة تكللت بالنهضة الأوربية في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي.

هناك شبه إجماع من طرف الباحثين والمؤرخين على أن هذه العصور تشغل الحيز الزمني الذي يقع بين سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية، أواخر القرن الخامس وبداية ظهور النهضة الأوربية الكبرى في القرن الخامس عشر وتعتبر هذه الفترة من أهم العصور وأشدها تعقيدا وتنوعا وأهمية وذلك بسبب إمتدادها الزمني الطويل الذي قارب الألف سنة ولإحتوائها على تشكيلة متنوعة من الشعوب والحضارات وفي هذه العصور بدا جليا الإختلاف الواضح بين الشرق والغرب، وبين بلاد الشمال وبلاد البحر الأبيض المتوسط وبين القديم والجديد، وبين التيارات الدينية والعلمانية وبين الأفكار المثالية والحياة الواقعية (1). وما أعطى لهذه العصور ميزتها الخاصة هو توسطها بين العالم القديم وحضاراته، والعالم الحديث ونظمه الشيء الذي جعل لها مكانة متميزة في تطور التاريخ البشري.

ولا يختلف إثنان حول ما شهدته أوربا الغربية في هذه الفترة من فوضى واضطراب ناتج بالأساس عن إنقضاض جحافل المتبربرين على العالم الروماني، وذلك منذ منتصف القرن الثاني الميلادي (2) والمقصود بالبرابرة هنا ليس المفهوم القدحي للكلمة، وإنما هي الشعوب المحيطة بالرومان فقد كان في الجنوب البربر أو الأمازيغ، وفي الجنوب الشرقي أحاط بهم العرب ومن الشرق وجد الفرس، وفي الشمال الشرقي استوطنت قبائل وشعوب آسيوية مثل الهون والبلغار، والمغول، أما في الغرب فقد انتشر السلاف والجرمان (3).

وواقع الحال أن هذه القبائل انقسمت إلى نوعين، نوع امتهن السلب والدمار وفريق غزى أقاليم الإمبراطورية الرومانية من أجل الإستقرار، فاختلط بالتالي بالسكان الرومان، الأمر الذي ترك أثرا عميقا في تاريخ المنطقة التي غزوها أي أوربا الغربية ونذكر من جملة النوع الثاني: القوط والفرنجة، والأنجلو سكسون (4).

وهكذا ما إن حل منتصف القرن الخامس حتى تمزقت الإمبراطورية الرومانية الغربية وضاع معظم أجزاءها تحت ضغط البرابرة مما مهد السبيل لقيام كيانات سياسية على أنقاض الإمبراطورية(5) وتعتبر دولة " الفرنجة" من أهم هذه الكيانات ويعد الملك كلوفيس (486-511) هو المؤسس الحقيقي لهذه الدولة التي اتخذت طابعا توسعيا، بخلاف باقي البرابرة الذين اتخذت هجماتهم صفة الهجرات الجماعية.

وما إن ألف الفرنجة حياة الإستقرار حتى أخذت تقاليدهم القبلية تتغير وذلك نتيجة إتصالهم بالسكان الرومان، وتأثرهم بحضارتهم وتقاليدهم المدنية واستمرت هذه الدولة في النمو والتطور لتصل إلى أوج قوتها بعد إعلان شارلمان إمبراطورا سنة 800م (6)، وبالتالي تأسيس الإمبراطورية المقدسة في الغرب لكن تمسك الفرنجة بنظريتهم حول الملك والقائلة بأنه إرث يوزع على أبناء الملك سرعان ما أدى إلى تقسيم الإمبراطورية، بل وتجزيئ كل قسم إلى أجزاء أصغر. أضف إلى ذلك ما ينتج عن هذا التقسيم من حروب أهلية بين الإخوة كل هذا أدى إلى تفكك الإمبراطورية وانهيارها سنة 888م (7).

وجدير بالذكر أنه منذ القرن التاسع، والعاشر، بدأت موجة جديدة من الغارات على أوربا الغربية خاصة في عهد الدولة الكارولنجية قادتها هذا المرة عناصر شمالية قادمة من إسكندنافيا ونخص بالذكر، الفكينغ الذين زادت غاراتهم الطين بلة، وأدت في ما أدت إلى تسارع انهيار السلطة الملكية كما لا نغفل الصراعات والحروب المستمرة بين الأمراء والحكام المحليين كل ذلك أدى إلى خلق حالة من اللاأمن، دفعت بصغار الملاك للبحث عن قوى تحميهم (8)، وبالتالي وضعت الأسس لقيام نظام يلائم هذه الظروف ألا وهو النظام الفيودالي الذي طبع الحياة السياسية لأوربا طيلة قرون.

هكذا تركت الظروف التي أحاطت بنهاية العالم القديم وبداية العصور الوسطى بصماتها على الثقافة والعلم والعقلية والفكر في هذه العصور بل على كافة أوجه الحياة في الغرب واستمر الحال على هذا المنوال حتى حدود القرن الثامن الذي شهد نهضة علمية مبكرة ومتواضعة كان مركزها إيرلندا وإنجلترا * إلا أن الظروف لم تكن مهيأة بعد لإحداث التغير المرغوب وما يقال عن نهضة القرنالثامن يقال عن نهضة القرن التاسع التي ارتبطت بالإمبراطور شارلمان.

وكانت هذه مقدمات النهضة أكثر شمولية شهدتها أوربا مع بداية القرن الحادي عشر هذه النهضة التي كان لها أثر عميق في إيقاظ الغرب الأوربي من سباته، وبدأ العقل الأوربي يحاول الخروج من ظلاميته ليضع حدا للجمود الفكري الذي طبعه منذ قرون (9).

الفصل الأول

أسباب ظهور النظام الفيودالي

- إشكالية التسمية ونشأة النظام الفيودالي وتطوره.
- ظهور النظام الفيودالي في الغرب وليس في الشرق

مقدمة :

ما أن أسدل القرن التاسع ستاره على أوربا حتى بدأت تتشكل ملامح نظام جديد يساير ظروف الفوضى وانعدام الأمن الناتج عن الإضطرابات والحروب الداخلية والغزوات الخارجية هذا النوع من انظمة الحكم المتميزة، أملته وأدت إليه ظروف ذاتية وأخرى موضوعية فجاء بالتالي مختلفا عن ما سبقه من أنظمة الحكم والإدارة، ولم يتكرر مثيل له بعد هذه الفترة أبدا، فقد كان متميزا كتميز الحقبة الزمنية التي ظهر فيها، أي فترة العصور الوسطى التي اختلفت تمام الإختلاف عن حقب التاريخ القديم والحديث .

هذا النظام هو النظام الفيودالي الذي تعارض ونظم الحكومات المركزية، من خلال ميله إلى تشجيع الإستقلال المحلي ومحاولة الإكتفاء الذاتي ووضع أسس ومبادئ لمختلف أوجه الحياة السياسية والإجتماعية والإقتصادية وحتى الثقافية فتأسس بالتالي مجتمع فيودالي قائم الذات له مبادئه وقيمه وأهدافه ومشكلاته فما هي طبيعة هذا النظام ؟ كيف نشأ وتطور ؟ ماهي الظروف التي أدت إلى ظهوره في أوربا الغربية بالذات وليس في مكان أخر؟.

الباب الأول: إشكالية التسمية ونشأة النظام الفيودالي وتطوره

I-إشكالية التسمية :

1- الفيودالية

من الملاحظ أن لفظتي "الإقطاع" والفيودالية Feodalité أوFéodalisme قد أثارتا نقاشات حادة بين الباحثين والمؤرخين خاصة في النصف الأول من القرن العشرين حيث خصصت أبحاث عديدة للنظر في الإختلاف بين هذين المصطلحين (10) وقبل التطرق إلى مختلف الأراء في هذا الموضوع يجب التنويه إلى الصعوبات التي تصادف الباحث خاصة المبتدأ لأن جل المراجع المتوفرة كتبها أو ترجمها باحثون مشارقة بما يرافق ذلك من عدم الدقة في ترجمة المصطلحات ذات الدلالات التاريخية، فتحيد بالتالي عن معانيها الحقيقية وتفقد جزءا من دلالاتها الأصلية، وكثيرا ما يتم مطابقة ألفاظ متداولة في التاريخ الأوربي-خاصة الوسيط- مع دلالات ألفاظ مقابلة في اللسان العربي حسب ما تقتضيه معانيها في تاريخ الإسلام بعيدا عن مراعاة الإختلاف الحاصل بين المعنيين (11).

فقد عرف الباحث البلجيكي جانسون F.L Ganchof الفيودالية بأنها يدل على مجموعة من المؤسسات التي تنظم واجبات الطاعة أو مجموعة من الخدمات وعلى الخصوص العسكرية منها من قبل رجل حر يدعى التابع « Vassal » اتجاه رجل أخر حر يدعى سيد. وكذلك ينظم واجبات الحماية من قبل السيد اتجاه التابع ويترتب عن واجب العناية منح السيد للتابع أرضا تدعى « Fief » (12).

ويتضح من هذا التعريف أن " الفيودالية" كانت تشكل نوع من العلاقات السياسية الإقتصادية بين رجال أحرار كما يعتبرها هذا التيار -أي النظام الفيودالي- على أنها مجموعة من المؤسسات السياسية والقانونية مثل أنظمة الحكومة اللاّ مركزية وهذا يعني أن الفيودالية ظهرت في النصف الثاني من القرن التاسع مع تفكك الإمبراطورية الكارولنجية كما يرى أصحاب هذا التعريف عدم ضرورة ارتباطه بأي نوع من الأنظمة الإقتصادية (13). لذا يجب أن لا نتكلم عن النظام الفيودالي إلا عندما نتكلم عن المكان الذي نشأ وتطور فيه، أي أوربا الغربية وبصورة خاصة " مملكة الفرنجة" (14)، فالفيودالية-حسب هذا التعريف- هي بناء محدد من نظم الحكم اللاّمركزية التي سادت أوربا الغربية منذ القرن التاسع وحتى القرن الثالث عشر، وقد تبنى عدد من الباحثين هذا التعريف إضافة إلى جانسوف، فهناك مثلا الإنجليزي ستنتون F.M. Stenton والأمريكيان ستراير J.R strayer وبرايس ليون Bryce Lyon(15).

واشتهر الباحث الفرنسي مارك بلوك Marc Block بطرحه لتفسير مغاير عن التفسير السابق وبما أنه كان مؤرخا إقتصاديا واجتماعيا، ما كان ليحدد الفيودالية على ضوء المصطلحات السياسية والقانونية الخالصة، بل نظر إليها على اعتبار أنها نظام شامل تتركز فيه كل جوانب الحياة –لا السياسية فحسب بل والإقتصادية والدينية والثقافية– في مفهوم السيادة « lordship » أما G.Bois فقد عرفه هذا النظام بأنه طغيان الإستغلالية الفردية إلى جانب الإبتزاز السنيوري بواسطة الضغط والإجبار ذي الطابع السياسي (17) وهكذا يتضح لنا أن النظام الفيودالي حسب التعريف الثاني كان أكثر شمولية وعليه فهو نظام سياسي له قيمه ومثله العليا ففي مقدورنا أن نتحدث عن الإقتصاد الفيودالي والكنيسة الفيودالية والأدب الفيودالي...تميزه عدة عوامل من أهمها نظام الضيعة. والذين يتبنون هذا التعريف الواسع للفيودالية يميلون إلى اعتبارها مرحلة من مراحل التطور الإجتماعي ظهرت أنظمة "إقطاعية" مشابه له في أماكن أخرى غير أوربا الغربية كاليابان والدولة البيزنطية (18).

2– **مصطلحات ذات الارتباط**

من أجل استيعاب الموضوع بشكل جيد كان من المفيد شرح بعض المصطلحات والعبارات التي نصادفها بكثرة في المراجع والتي ترتبط بشكل أو بآخر بالفيودالية.

أ– **الفييف Fief**

هي قطعة الأرض أوالمنحة التي يتسلمها التابع من سيده الفيودالي مقابل مجموعة من الخدمات أو المهام الإدارية والدفاعية وقد ازدهرت هذه الظاهرة وتعممت منذ القرن العاشر الميلادي خاصة بعد غياب السلطة المركزية وتعويضها بقوى محلية احتكرت النفوذ السياسي والعسكري.د

وكان يمنح الفييف في احتفال رسمي يعكس الإتفاق بين التابع وسيده، وبعده يمكن للمنوح أن يبدأ باستغلال ملكيته كما كان من حق السيد إستعادة أرضه في حالة إذا ما أخل التابع بأحد شروط الإتفاق، وبعد تطور مستمر أصبح من حق أبناء التابع وراثة تلك الملكية بعد تأدية حقوق هذا الإرث (19).

ب–**السنيورية : Seignerie**

إذا كان النظام الفيودالي ينظم العلاقة بين سيد حر وتابع حر في إطار من الحقوق والواجبات، فإن النظام السنيوري ينظم العلاقة بين سيد حر يمتلك الأرض وبين مزارعين مستعبدين مرتبطين بالأرض فالعلاقة هنا إذن بين سيد وقن خاضع ومقيد بالأرض (20).

والواقع أن العصور الوسطى شهدت نوعين من السنيورية "العقارية" وهي المرتبطة بالأرض و "الإلزامية" على شكل سلطة مباشرة من طرف السيد الفيودالي وذلك من خلال فرض مجموعة من الواجبات على الفلاحين المرتبطين بالأرض، التي تقسم غالبا إلى قسمين جزء خاص بالسيد الفيودالي

والباقي موزع على مجموعة من الفلاحين على شكل استغلاليات فلاحية مقابل خدمات متعددة يقدمونها لسيدهم (21).

ج- القنانة Servage

تطلق هذه الصفة على الفلاحين المرتبطين بالأرض وترجع أصولهم إلى فئة العبيد إضاف إليهم أعداد كبير من الذين فقدوا حريتهم بسبب الأوضاع التي سادت أوربا في القرن التاسع وهذا ما أدى إلى ظهور طبقة من الأقنان ذات أصل حر حتمت عليهم الظروف القبول بهذا الوضع (22). والملاحظ أن القن لم يكن عبدا بالمعنى المعروف لأن سيده لم يكن له الحق في بيعه أو الإعتداء عليه بالضرب بدون ذنب وعليه فإن القن لم يكن حرا ولا عبدا بل كان في منزله بين المنزلتين فهو لا يتمتع إلا بالقليل من الحقوق المدنية في إطار علاقته بسيده إلا أنه خارج إطار هذه العلاقة فهو حر في نظر الدولة له ما للأحرار من حقوق وإرادة (23). بل كان تكتل الأقنان في ما بينهم يحول دون طغيان السيد عليهم.

رغم ذلك لا يخفى على أحد الظروف القاسية التي كانت هذه الطبقة تعاني منها بسبب الخدمات الكثيرة التي تؤديها إضافة للقمع الذي يتعرضون له من طرف السادة الفيوداليين وحرمانهم من أبسط حقوق الإنسان. وبالتالي أصبح القن تحت رحمة السيد الفيودالي بل أكثر من ذلك أضحى السادة يتدخلون حتى في جوانب الحياة العائلية للأقنان كالتدخل في مسائل الزواج والإرث وغير ذلك من القضايا الشخصية.

II-نشأة النظام الفيودالي و تطوره.

كيف ؟ ومتى نشأ النظام الفيودالي ؟ سؤالين تصعب الإجابة عليهما فمن الصعب تتبع أصوله الأولى بسبب إختلاف المؤرخين حول هذه النشأة، وأصل الإختلاف هو ما إذا كانت هذه الأصول رومانية أو جرمانية، وهكذا ظهرت تياران أو مدرستان : المدرسة الرومانية، والمدرسة الجرمانية وأخذت كل واحدة تناوئ الأخرى (24). إلا أن البعض قد يرى أن هذه المشكلة مصطنعة وليست ذات أهمية، لأن النظم الفيودالية قد تكونت من خلال امتزاج أشكال سياسية واقتصادية معينة، جرمانية في بعض الأحوال ورومانية في بعضها الآخر وذلك استجابة لحاجيات إجتماعية خلفتها التطورات التي أعقبت إنهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية (25).

ولعل أهم هذه التطورات هو ذلك الإختلاط الذي حدث بين السكان الأصليين –الرومان– والعناصر المغيرة –الجرمان–، وهو الشيء الذي أدى إلى تكون بناء إجتماعي خاص في غرب أوربا، نتيجة التداخل بين هذه الشعوب القبلية الجرمانية وغير الجرمانية في محيط سياسي واجتماعي لا يقوم على أساس قبلي بل كانت تؤطره حكومة مركزية تختلف تنظيماتها كل الإختلاف عما ألفته هذه الشعوب ومما لا شك فيه أنهم –الجرمان– قد أدخلوا معهم كثيرا من التنظيمات القبلية كاحترام سلطة

رئيس القبيلة أو العشيرة احتراما مطلقا، بالإضافة إلى استخدام العبيد وهذه عناصر كانت لها أهميتها في النظم الفيودالية (26) التي تكونت لاحقا. أضف إلى ذلك غياب مفهوم السلطة المركزية لدى هذه الشعوب فإذا كانت بعض الملكيات الجرمانية قد تشكلت في الغرب الأوربي، فإن هذا النمو جاء نتيجة لتأثرها بروح الإستقرار الذي أخذته ونعمت به هذه القبائل الجرمانية بعد اقتحامها للعالم الروماني (27) أو بتعبير اخر بعد احتوائها من طرف الحضارة الرومانية.

وكان من مميزات هذه القبائل مجالس الحرب Comitatus والتي تقوم على أساس ولاء المقاتلين لرئيسهم في مقابل حماية هذا الأخير لهم وكرمه معهم فكان هذا هو الشكل الجنيني للنظام الفيودالي (27) أي الأصل الجرماني له وقد ظل هذا النوع من الولاء قائما في القرنين الخامس والسادس بفضل وجود نظام مشابه في الإمبراطورية المتأخرة وهو نظام التبعية Patrocunium(29).

وفي غمرة هذه الأحوال المضطربة وانعدام الأمن -بين القرن الثالث والسادس- خاصة في المدن الإيطالية والغالية انتقل أعيان هذه المدن إلى قصورهم الريفية (30) وجمعوا حولهم الشباب القادرين على القتال وأغدقوا عليهم الهبات وخصوهم بالحماية في مقابل ولائهم وخدماتهم (31)، العسكرية على الخصوص وكان من نتائج هذه الإضطرابات تخريب الطرق، ووسائل النقل وهو ما انتج نوع من الكساد التجاري، واضمحلال في الصناعة أضحت بموجبه إيرادات الدول في انخفاض مما أدى إلى ضعف الحكومات وعجزها عن ضبط الوضع، مما أجبر الإرستقراطيات في الأرياف إلى محاولة الإكتفاء الذاتي من الناحية الإقتصادية فأصبح كثير من الأدوات والصناعات التي كانت تستورد من المدن تصنع محليا داخل الضياع الكبيرة وذلك منذ القرن الثالث الميلادي (32)

نفس الأسباب التي أدت إلى ظهور هذا النوع من التنظيمات الفيودالية بين القرنين الثالث والسادس، هي نفسها التي أدت إلى ظهور النظام الفيودالي بين القرنين السادس والتاسع (33). إضاف إليها عنصر جديد ألا وهو الجانب الحربي وبالضبط نظام الفروسية فمن المعروف أن محاربي الجرمان كانوا في معظمهم من المشاة لكن تفوق المقاتل الراكب أي الفرسان الذين استركوا في القتال الفعلي بدا واضحا أكثر فأكثر (34). وعلى هذا الأساس حاول بعض الملوك التوسع في نظام الفروسية ونخص بالذكر شارل مارتل الذي حاول تكوين جيش على أساس الجندي الراكب ليجعل منه قوة فعالة. لكن صادفه مشكل التمويل بسبب كثرة النفقات التي يحتاج إليها المقاتل من الفرس وعدة الحرب ومن مختلف الأسلحة والدروع فضلا عن مورد للعيش يجعله يتفرغ للقتال وبما أن دولة الفرنجة كانت محدودة الموارد في القرن الثامن، فإن شارل مارتل اهتدى إلى حل مفاده أن يجمع المقاتلين فيقسمون له يمين الولاء مقابل إعطاء كل واحد منهم "إقطاعا" يكفي لسد حاجياته المعيشية، على أن يبقى هذا "الإقطاع" في حوزة المقاتل الفارس مادام يؤدي الخدمة العسكرية (35). وحذى الملوك الذين تلو مارتل

نفس الحذو. فبدأوا يؤجرون قوادهم وموظفيهم الإداريين، بمنحهم مساحات من الأرض التي أصبحت في القرن التاسع وراثية وشبه مستقلة عن الحكومة بسبب ما مورس على ملوك الدولة الكارولنجية من ضغوط جراء الهجمات الإسلامية من الجنوب وغارات الفكينغ والمجريين من الشمال (36) كل هذا جعل الحكومة المركزية عاجزة عن حماية المناطق النائية التي تولى الأساقفة، والبارونات الدفاع عنها من خلال تكوين فرق مقاتلة مستقلة. واحتكارهم لبعض اختصاصات الحكومة مثل فرض النظام والقضاء...

إذن فبدور النظام الفيودالي " الكلاسيكي" ظهرت في أوربا في القرن الثامن إلا أن الأوضاع التي شهدتها الدولة الكارولنجية، وغرب أوربا بوجه عام في القرن التاسع ساعده على تبلوره في الشكل الذي نعرفه، فالحروب الداخلية والخارجية خلقت جوا مكهربا أصبحت الكلمة الأولى والأخيرة فيه للغة السلاح وهكذا أمسى سكان المدن والقرى لا يأمنون على حياتهم إلا في ظل حماية مسلحة. ولم يعد أمام الرجل الحر في هذه الفترة سوى طريقين، إما أن يكون محاربا وإما أن يكون قنا، لأنه لا يستطيع أن يبقى بمفرده دون سيد يحميه.د

وعليه أخذ الملوك والأمراء وكبار السادة الفيوداليين يبحثون عن أتباع مسلحين يساعدونهم في حروبهم المستمرة مقابل منحهم أعطيات من الأرض أما في ما يتعلق بصغار الملاكين فكان لزاما عليهم الدخول في حماية من هم أقوى منهم فيسلم المالك الصغير أرضه لسيد قوي ثم يتسلمها منه "كإقطاع" فيصبح بالتالي تابعا فيوداليا له (37).

وعلى هذا المنوال تطور في القرن التاسع سلم فيودالي على شكل هرمي مكون من السادة والأتباع فالفارس العادي الذي يملك من الأرض ومن الفرحين القائمين على خدمته ما يكفيه هو وأسرته يعتبر تابعا لمن هو أكبر منه قد يكون الكونت، الذي كان تابعا لكونت أكبر منه أو الدوق وهذا الأخير تابع للملك والخلاصة أننا نلاحظ هرما على رأسه الملك وفي قاعدته الفارس الصغير، على أن هذا البناء لم يكتمل في القرن التاسع ولم يكن شائعا في كل أجزاء الإمبراطورية الكارولنجية (38). وبقيت مناطق كثير من أوربا الغربية لم يشملها هذا النوع من الأنظمة مثل : شرق إيطاليا وإسبانيا وغربي ألمانيا وجنوب فرنسا وغيرها من المناطق وحتى في داخل النظام الفيودالي نفسه كانت ظروف التعاقد ومنزلة المتعاقدين تختلف باختلاف البلاد والملاك والأزمنة (39) وهكذا فإن ما عرف بالنظام الفيودالي شمل بالخصوص فرنسا وإنجلترا في عصره الذهبي أي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين.

الباب الثاني: ظهور النظام الفيودالي في الغرب وليس في الشرق

إن السؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح هو: هل ظهر النظام الفيودالي في أوربا الغربية وحدها أم أنه ظهر في مناطق أخرى من العالم ؟ وفي الواقع فإن النظام الفيودالي بما يمثله من علاقات إجتماعية، وسياسية، وإقتصادية متميزة أملته ظروف موضوعية وأدت إليه، مرتبط بمنطقة محددة هي أوربا الغربية لذلك فعندما نتحدث عن النظام الفيودالي فإننا نقصد بذلك النظام الذي نشأ واتسع وتطور عبر فترات العصور الوسطى في أوربا الغربية لكن هذا لا يمنع من وجود نوع من النظم " الإقطاعية" شبيهة بالنظام الفيودالي في مناطق أخرى من العالم (40). فما هي الظروف التي سادت كل من العالمين الشرقي والغربي والتي جعلت من الغرب مكانا خصبا لظهور هذا النظام ؟.

I-أحوال الشرق الإقتصادية قبيل القرن العاشر

1-الإمبراطورية البيزنطية.

إن المتتبع لتاريخ أوربا نهاية القرن التاسع، يلاحظ ذلك التباين الشديد في الأحوال الإقتصادية في كل من غرب أوربا والشرق نخص بالذكر الدولة البيزنطية والعالم الإسلامي ويرجع رخاء بيزنطة إلى توفر الحكومة المركزية فيها على قوة لم تتسنى لدول الغرب التوفر على مثيلها حيث جندت الدولة جيشا نظاميا جهزته بكل ما يلزمه من عدة وعتاد كما شيدت الحصون الدائمة والقيام بالمحافظة عليها وشيدت سفنا حربية وأبقت عليها في حالة جيدة (41). يضاف إلى ذلك سيطرة الحكومة على النشاط الإقتصادي من خلال مراقبتها للنقابات التي انتظم فيها أرباب الحرف والصناعات، وضبط الأسعار، وإصدار التصاريح بتصدير واستيراد السلع وبفضل هذا التنظيم توفرت الأسواق على مختلف السلع الأساسية والكمالية (42). واعتبرت الضرائب قاعدة الإقتصاد ومصدر الدخل العام الرئيسي وذلك في إطار محكم ومنظم يختلف تبعا لنوع العمل والحالة الإقتصادية للمواطنين في المدن والقرى (43).

وهكذا أصبحت القسطنطينية أكبر مستودع تجاري لأوربا في العصور الوسطى واستطاع تنظيمها الإقتصادي والإجتماعي تغذية شعب أكثر عددا، بلغ ما يقارب سبعمائة ألف نسمة (44)، واستطاعت بفضل قوة حكومتها المركزية ومعاداتها الشديدة للإستقلال المحلي بالإضافة إلى تنظيمها الإداري المحكم البقاء ما يناهز ألف سنة بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب وذلك رغم الاضطرابات المستمرة في الداخل وحالة الحرب شبه المستمرة مع الدولة الإسلامية (45).

2-العالم الإسلامي

لم تختلف الأوضاع في الدولة الإسلامية عما كانت عليه في بيزنطة فقد كانت بغداد في القرن التاسع الميلادي مركزا تجاريا كبيرا، ووصلت التجارة العربية الإسلامية إلى الهند والصين، وإفريقيا، وإسبانيا ومن الدليل على إتساع التجارة الإسلامية وازدهارها ظهور المصارف وتطورها التي مارسها أهل الذمة على الخصوص، نظرا لتحريم الإسلام للربا فكثرت هذه المصارف في العاصمة بغداد بل وصار لها فروع في أهم المدن الإسلامية أضف إلى ذلك توسط البلاد الإسلامية بين الشرق الأقصى والغرب اللأتيني، مما منحها ميزة الوسيط التجاري، كما هو الشأن بالنسبة للدولة البيزنطية، كان النشاط التجاري خاضع لسلطة الحكومة، من خلال مراقبة الأسعار وغيرها رافق ذلك ازدهار الصناعة خاصة صناعة المنسوجات الحريرية والقطنية إضافة إلى صناعة الورق (46).

II-أحوال أوربا الغربية قبيل القرن العاشر

بينما شهدت الدولتان الإسلامية والبيزنطية ازدهارا تجاريا ورخاءا إقتصاديا شهدت أوربا الغربية انهيارا وركودا اختلف الباحثون حول أسبابه وملابساته هذا الركود أدى بدول الغرب الأوربي إلى العودة للإقتصاد الطبيعي الذي يعتبر الأرض المصدر الرئيسي للثروة والنفوذ وينعدم التعامل فيه بالنقود، وهي كلها سمات للإنحطاط والتخلف الإقتصادي لكن ما هي الأسباب التي أدت إلى ظهور هذا النوع من الأنظمة الإقتصادية في أوربا الغربية ؟

يعتقد المؤرخ البلجيكي هنري بيرين Henri Pirenne أن الإقتصاد في أوربا كان قائما بالأساس على التجارة في البحر الأبيض المتوسط بين بلاد الشرق والغرب والشمال والجنوب بحيث ازدهرت أوربا بازدهار هذه التجارة واستمرارها وأعتقد بيرين أن القطيعة بين الشرق والغرب حدثت في البحر الأبيض المتوسط بسبب ظهور المسلمين وسيطرتهم على معظم أجزائه وهو الأمر الذي أدى إلى توقف العلاقات التجارية خلال القرن الثامن وانطلق بيرين من عدة معطيات ليؤكد نظريته من خلال معلومات واردة في الوثائق الأوربية الميروفنجية والكارولنجية، فاستدل على توقف التجارة بانقطاع مجموعة من المواد التجارية الشرقية مثل البردي والتوابل (47)، وغيرها.

نتج عن هذا التوقف للتجارة المتوسطية تداعي المدن بسبب فقدان ما كان لها من أهمية إقتصادية رافق ذلك تضاءل عدد السكان وانخفاض في عدد التجار الذين كانوا يزورون تلك المدن بالمؤن وتداعت الزراعة في الأرياف حيث لم يعد هناك منفذ لتصريفها واصبح الإنتاج الزراعي يستهلك محليا دون أن يصدر إلى المدن ومن هنا فقدت النقود أهميتها، وأمسى بالتالي أصحاب الأراضي وكبار الملاكين يشيدون مصانعهم الخاصة لصناعة ما يحتاجونه من أدوات كانت تجلب سابقا من المدن مقابل أجور عينية مما تنتجه الأرض. ينضاف إلى ذلك اتساع المسافات بين المدن بحيث خلقت نوعا من

العزلة الإقتصادية ومشعا لتنمية إقتصاد زراعي بحت (48). وبالتالي وصلت أوربا إلى الحالة التي سماها بيرين بالإقتصاد المغلق economy of no outlets والذي ساد أوربا في القرنين الثامن والتاسع، بل اعتبره السبب الرئيسي في ظهور النظام الفيودالي، وهكذا أصبحت الأرض مصدر القوة والثراء ولم يعد هناك سبب للتعامل بالنقود التي لم تجد منفذا لتصريفها وهذا ما دفع بالحكام الكارولنجيين إلى بذل الأراضي لأتباعهم وموظفيهم كأجور لقاء عملهم عوض الدفع لهم نقدا فالفيودالية حسب بيرين ما هي إلا نتيجة حتمية للإقتصاد المغلق (49).

إلا أن هذه النظرية تعرضت لإنتقادات كثيرة، ومن الذين انتقدوا آراء بيرين المستشرق المشهور موريس لومبارد Maurice Lombard الذي لاحظ أن بيرين انطلق من وثائق مسيحية أوربية وحدها ليبني عليها نظرية لا تعني أوربا بمفردها بل تعني كذلك العالمين البيزنطي والإسلامي مما يستوجب البحث في وثائق تهم الحضارات الثلاث واعتبر أن السبب في انهيار إقتصاد أوربا الغربية كان سببه الدولة البيزنطية التي لم تستطع إيقاف تراجع أوربا أما المسلمون في نظره فقد شكلوا قوة إقتصادية في جل أنحاء المتوسط استفادت منها أوربا (50) على حد زعمه.

كما عارض بيرين كل من جاك لكوف J. le Goff و ج.ن.بيرابن J.N Biraben حينما درسا أسباب التحولات الإقتصادية وانتقال القطب التجاري من جنوب أوربا إلى الشمال، اعتقد الباحثان بأن مرض الطاعون الذي انتشر في المناطق المتوسطية من أوربا منذ أواسط القرن السادس الميلادي هو المسؤول الأول عن ضعف المناطق الجنوبية إقتصاديا وبشريا وليس الإسلام (51).

والواقع أن هذه الأوضاع الإقتصادية التي أقل ما يقال عنها أنها مزرية ترجع إلى سببين رئيسيين:

أولهما أختلال الميزان التجاري لصالح بلاد الشرق فلم يعد بوسع أوربا الغربية أن تشتري كل ما يلزمها من سلع لسبب بسيط وهو عدم القدرة على دفع ثمنها إذ تضاءل ما تصدره أوربا الغربية إلى الشرق من الرقيق والفراء نظرا لتدخل الكنيسة لمنع هذه التجارة عند ملوك الفرنجة على أن هذه الظروف كانت تتغير من حين لآخر بفضل ما تدفعه الدولة البيزنطية للممالك المتبربرة من أموال مقابل تحالفات وخدمات عسكرية، هذه المنح توقفت في القرن الثامن بسبب انصراف بيزنطة إلى مواجهة المسلمين على حدودها الشرقية فاستغنى سكان الغرب عن الكثير من السلع الشرقية الأساسية والكمالية (52).

أما السبب الثاني فكان اضطراب الأمن في الطرق التجارية في البحر المتوسط وشمال أوربا بسبب إغارات الفكينغ والمجريين والمسلمين خاصة على الأنهار الصالحة للملاحة والتي يستخدمها التجار لنقل بضائعهم لذا فالمدن التجارية في القرنين التاسع والعاشر لم تعد تلك المدن المتواجدة على

محاور التجارة الإستراتيجية بل أصبحت تلك البعيدة عن الأخطار مثل ريمس و متز اللتان نعمتا بالأمن لبعدهما عن الساحل (53).

وهكذا بلغ النشاط التجاري والإقتصادي عموما بأوربا الغربية في القرنين التاسع والعاشر بلغ من الضعف ما لم يصله منذ سقوط الإمبراطورية في الغرب ولن نجد ذلك غريبا إذا علمنا أن سلطة الحكومة بدورها بلغت في هذه الفترة أدنى قوتها وأحلك لحظات تطورها إذ سرعان ما تفككت الإمبراطورية الكارولنجية وعم الإضطراب والفوضى في كل مكان ولم تنهض التجارة من كبوتها إلا بعد عودة الإستقرار السياسي وتوفر الأمن والسلام وهذا ما تحقق نسبيا في القرن الحادي عشر.

وخلاصة القول أن أوربا الغربية توفر لها من الأسباب ما أهلها لتكون المهد لظهور النظام الفيودالي الذي يستطيع بمفرده التأقلم مع ظروف الإضطراب وغياب القانون وانحلال السلطة الحكومية وهذا ما يفسر ظهوره بأوربا الغربية وليس في دول الشرق ذات الحكومات المركزية القوية والقادرة على ضبط زمام الأمور وتوفير الحماية لمواطنيها من خلال جيوشها المركزية القروية وتنظيمها السياسي والإقتصادي المحكم في حين كانت أوربا الغربية تتخبط في الحروب الأهلية والنزاعات المحلية وازدياد قوة الحكام الإقليميين أضف إلى ذلك ضعف الملوك وعجزهم عن القيام بمهامهم الأساسية المتمثلة في حفظ الأمن وجلب الإستقرار للمجتمع.

خاتمة

وعليه فبعد دراستنا لحالة أوربا الغربية منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية، وحتى حدود القرن العاشر إتضح لنا أنها عاشت من القلاقل والصراعات وانعدام الأمن ما أهلها لتكون أرضا خصبة لتزعزع شكل من أشكال الحكم القادرة على التأقلم مع هذا الوضع غير الطبيعي.

وهكذا فالنظام الفيودالي ما هو إلا حل مؤقت استطاع العقل الأوربي ابتداعه -ولو عفويا- لمسايرة هذه الحالة غير السوية ورغم ذلك فإن تطور النظم الفيودالية لم تكتمل نهائيا في هذه المرحلة أي القرن التاسع بل إنه استمر في التبلور والتشكل البطيئ ولم يصل للبناء الذي نعرفه عليه إلا في القرنين الحادي عشر والثاني عشر لذا فإننا عندما نتحدث عن الفيودالية فإننا نتكلم عن النظم التي تكونت في هذين القرنين وفي فرنسا وإنجلترا على وجه الخصوص.

هوامش الفصل الأول

1-عاشور (سعيد ع الفتاح)، أوربا لعصور الوسطى النهضات والحضارة والنظم، ج2، القاهرة، 1980. ص. 3.

2-عاشور (سعيد ع الفتاح)، أوربا العصور الوسطى، ج1، التاريخ السياسي، القاهرة، 1981، ص. 71

3-عاشور (سعيد ع الفتاح)، أوربا ...، ص 72

4-عاشور (سعيد ع الفتاح)، أوربا....، ص. 82-83.

5-انظر ملحق الصور والخرائط خريطة رقم 1.

6-عاشور (سعيد ع الفتاح)، أوربا...، ص. 208.

7-عاشور (سعيد ع الفتاح)، أوربا...، ص. 216.

8-عاشور (سعيد ع الفتاح)، أوربا...، ص. 248.

9- نسيم (جوزيف) نشأة الجامعات في العصور الوسطى، بيروت، 1981، ص28.

10- حناوي (محمد) دليل المصطلحات في التاريخ الأوربي الوسيط، الجزء الأول، الرباط، 2002/ 2003، ص 49.

11- حناوي (محمد)، دليل المصطلحات...، ص05.

12- حناوي (محمد)، الدليل...، ص49.

13- كانتور (ف.نورمان)، العصور الوسطى الباكرة القرن الثالث/القرن التاسع الميلادي، القاهرة 1993، ص330-331.

14- حاطوم (نور الدين)، تاريخ العصر الوسيط في أوربة، دمشق، 1982، ص348.

15- كانتور (ف.نورمان)، العصور الوسطى...، ص331.

16- كانتور (ف.نورمان)، العصور ...، ص331.

17- حناوي (محمد)، دليل المصطلحات...، ص50،49.

18- كانتور (ف.نورمان)، العصور الوسطى...، ص332.

19- حناوي (محمد)، دليل المصطلحات...، ص53.

20- عاشور (سعيد عبد الفتاح)، حضارة ونظم أوربا في العصور الوسطى، بيروت، 1976، ص 410.

21- حناوي (محمد)، دليل المصطلحات...، ص91.

22- عاشور (سعيد عبد الفتاح)، حضارة ونظم...، ص410.

23- عاشور (سعيد عبد الفتاح)، حضارة ونظم...، ص417.

24- حاطوم (نور الدين)، تاريخ العصر...، ص351.

25- كانتور (ف.نورمان)، العصور...ص 334.

26- عاشور (سعيد عبد الفتاح)، حضارة ونظم...، ص380.

27- عاشور (سعيد عبد الفتاح)، حضارة...، ص380.

28- كانتور (ف.نورمان)، العصور...، ص334.

29- كانتور (ف.نورمان)، العصور...، ص334.

30- ديورانت (ول)، قصة الحضارة الجزء السادس من المجلد الرابع، القاهرة، 1964، ص 404.

31- كانتور (ف.نورمان)، العصور...، ص334.

32- ديورانت (ول)، قصة الحضارة...، ص404.

33- ديورانت (ول)، قصة الحضارة...، ص405.

34- كانتور (ف.نورمان)، العصور...، ص 336.

35- عاشور (سعيد عبد الفتاح)، حضارة ونظم...، ص381.

36- ديورانت (ول)، قصة الحضارة...، ص405.

37- عاشور (سعيد عبد الفتاح، حضارة ونظم.....، ص382.

38- العريني (الباز)، تاريخ أوربا العصور الوسطى، بيروت، 1968، ص394.

39- ديورانت (ول)، قصة الحضارة...، ص 407،406.

40- حاطوم (نور الدين)، تاريخ العصر الوسيط...، ص349،348.

41- هرتمان (ل.م) وبراكلاف (ج)ن الدولة والإمبراطورية في العصور الوسطى، بيروت، 1981، ص93.

42- العريني (الباز)، تاريخ أوربا...، ص337.

43- هرتمان (ل.م) وبراكلاف (ج)، الدولة والإمبراطورية...، ص93.

44- العريني (الباز)، تاريخ أوربا...، ص378.

45- هرتمان (ل.م) وبراكلاف (ج)، الدولة...، ص95.

46- العريني (الباز)، تاريخ أوربا...، ص379،378.

47- حناوي (محمد)، عنوان المحاضرة، جوانب من العلاقات الإقتصادية والبشرية في الحوض الغربي للبحر المتوسط قبيل القرن العاشر، في كتاب الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى، الرباط، 1995، ص152.

48- هرتمان (ل.م) وبركلاف (ج)، الدولة والإمبراطورية...، ص97.

49- العريني (الباز)، تاريخ أوربا...، ص380.

50- حناوي (محمد)، الغرب الإسلامي...، ص153.

51- حناوي (محمد)، الغرب الإسلامي...، ص153،154.

52- العريني (الباز)، تاريخ أوربا...، ص383.

53- العريني (الباز)، تاريخ أوربا...، ص383.384.

الفصل الثاني

خصائص النظام الفيودالي

- الباب الأول: الأســس
- الباب الثاني: الجانب العسكري والحربي
- الباب الثالث: الجانب الاجتماعي
- الباب الرابع: الجانب الاقتصادي
- الباب الخامس: الجانب السياسي والإداري

مقدمة :

بحلول القرنين الحادي عشر والثاني عشر بلغ النظام الفيودالي أقصى تطوره حيث اكتملت بنياته الأساسية وتبلورت نظمه ومكوناته في حين بلغت سلطة الحكومات المركزية أقصى فترات تقهقرها الأمر الذي منح النظام الفيودالي الفرصة للحلول مكانها لسد الفراغ الذي أحدثه غياب حكومات قوية وبالتالي اكتست أوربا حلة جديدة عبارة عن بقع أرضية مبعثرة هنا هناك قائمة الذات، ومكتفية ذاتيا وشبه مستقلة عن ما حولها من "إقطاعات" خاضعة لسلطة الملك إسميا لكنها مستقلة عمليا يتمتع فيها السيد الفيودالي بكل السلطات الزمنية ويخضع له أعداد كبيرة من الفلاحين والعمال، له بيته الخاص، ونظامه السياسي والقضائي الخاص، وتسييره الإقتصادي المستقل وبعد أن كان الملوك يحكمون دولا وإمبراطوريات مترامية الأطراف أصبحوا -خاصة في فرنسا- في أفضل أحوالهم سادة فيوداليين في ضياعهم الكبيرة، ينطبق عليهم ما ينطبق على أي سيد فيودالي فما هي يا ترى الأسس التي ارتكز عليها هذا النظام ؟ وكيف استطاع احتواء تناقضات المجتمع الأوربي في إطار محكم من الحقوق والواجبات ؟ وأخيرا كيف استطاع تنظيم مختلف جوانب الحياة في إطاره الخاص ؟.

الباب الأول: الأســس

I- الأرض

تعتبر الأرض الركيزة الأساسية التي تقوم عليها العلاقات الفيودالية (1) وترجع البدايات الأولى لمنح الأراضي على شكل "إقطاعات" إلى القرنين السادس والتاسع الميلاديين، وذلك أن الملوك الميروفنجيون والكارولنجيون بدأوا يؤجرون قوادهم وموظفيهم الإداريين بمنحهم مساحات من الأرض (2)، وهكذا حذا كبار الأمراء وملاك الأراضي حذوهم وقاموا بمنح الأراضي لأتباع مسلحين مقابل خدماتهم، وبعبارة أخرى لجأ كل من يمتلك أرضا أكثر من حاجته إلى منحها "كإقطاع" (3).

وحتى حدود هذه الفترة لم تكن التبعية la vasalité ترتبط بملكية الأرض فقد كان الأتباع يعيشون مع سيدهم في القلعة ذات الجدران الخشبية وهو يتكفل برعايتهم وإطعامهم في مرحلة لاحقة من تطور النظم الفيودالية تم الربط بين التبعية وملكية الأرض أي أصبحت مكافئة الأتباع تتم بمنحهم إقطاعات أرضية مقابل خدماتهم، إلا أن هذا التطور كان بطيئا كما يرى جانسوف F.L Ganshof حتى حدود القرن العاشر الميلادي لم يكن غالبية الأتباع في فرنسا يمتلكون "إقطاعات" أرضية وفي عهد الحكام الميروفنجيين لم يكن يمتلك الأرض سوى علية القوم، وكانوا يمنحون الأراضي للدوقات والكونتات لكي يضمنوا ولائهم من ناحية، ولكي يعيشون على دخلها مقابل خدماتهم الحكومية من ناحية ثانية.

كانت هذه هي بداية الإرتباط بين الأرض وخدمة السيد الفيودالي (4)، حيث أصبح هؤلاء الأسياد يمنحون الأراضي بدورهم إلى أتباع آخرين مقابل خدمات مختلفة إلا أن منح "الإقطاع" أو fief لا يعني ملكية الأرض بل كان له أن يستفيد من عائداتها فقط، أما من الناحية القانونية فكانت الأرض في ملك السيد الذي يمكنه استعادتها إذا أخل التابع بشروط منح "الإقطاع" (5)، -حسب العرف الفيودالي- لأن السيد يحتفظ لنفسه بحق يستطيع بموجبه إلغاء العقد في أي وقت شاء وقد أصبح هذا النوع من التملك هو السمة العامة في هذه الفترة، وهي نفس الطريقة التي كان يمتلك بها الرقيق الأرض (6).

يعتقد بعض المؤرخين أن أصل هذه الحيازة الفيودالية يرجع إلى نظام "حيازة الأرض" الذي كان معروفا في القرنين السابع والثامن باسم بريكاريوم precarium، وهو النظام الذي كان معمولا به في أراضي الكنيسة بشكل خاص وبموجبه كان الأسقف الذي يمتلك مساحة من الأرض أكبر مما يمكنه أن يديرها بنفسه فيسمح للفلاح بالإستفادة منها مقابل أجر معين ويحتفظ لنفسه بحق إستعادتها في أي وقت شاء (7).

هكذا بدأ الربط المتزايد بين التبعية الفيودالية والأرض الذي بسببه نشأت رغبة متزايدة في إمتلاك هذه الأخيرة لدى الأتباع واستمر الحال على هذا النحو حتى ما بعد القرن الثاني عشر حيث أصبح الأتباع يبحثون عن سادة مستعدين لمنحهم "إقطاعات" والذين يملكون بالفعل أصبحوا يتطلعون لإمتلاك المزيد كما أرادوا أن يحولوا هذه "الإقطاعات" إلى أملاك وراثية وعلى الرغم أن "الإقطاع" لم يكن وراثيا من الناحية القانونية أي أنه كان يعود إلى السيد بعد وفاة التابع، إلا أنه في منتصف القرن العاشر أصبح وراثيا بالفعل من خلال دفع ضريبة تسمى الحلوان (8) relief.

وبعد أن أصبح "الإقطاع" وراثيا أضحت الإلتزامات خاضعة لعقد مشترك بين السيد والتابع فلم يعد بوسع السيد أن يستعيده كلما أراد، إذ أنه لا يمكنه أن يقوم بهذا الإجراء إلا إذا أخل التابع بالعقد (9).

وبنهاية القرن العاشر أمسى تقسيم الإقطاعات إلى قطع صغيرة أمرا شائعا وكانت هذه العملية تتم عبر درجات السلم الفيودالي من الملك مرورا بالدوق أو البارون إلى الأقل مرتبة أي تابع التابع (10) vavasour.

II- عقد التبعية

نتج عن الفوضى العامة التي تعرضت لها أوربا الغربية في القرن التاسع دخول صغار ملاك الأراضي في حماية من هم أقوى منهم وأقدر على الدفاع عنهم، وهكذا يلجأ المالك الصغير إلى تسليم أرضه لسيد أقوى منه ثم يعود ليتسلمها منه "كإقطاع" فيصبح بالتالي تابعا فيوداليا له (11).

فما هي مراسيم تقديم الولاء ؟ وما هي الحقوق والواجبات المترتبة عليه ؟

1- قسم الولاء

لم تكن هناك صيغة واحدة ومعينة لهذا القسم وكانت إجراءات التبعية هذه معروفة عند الفرنجة ويبدو أن الإحتفال كان في جوهره خاضعا لتقاليد الوثنية القديمة خاصة الجرمانية التي تقضي بدخول الفرد تحت رئاسة زعيم القبيلة.

أما يمين الولاء فقد إستحدث نتيجة التأثير المسيحي (12). وتتم هذه المراسيم في احتفال عام يركع خلاله التابع الأعزل عاري الرأس يضع يده في يد السيد الفيودالي ويعلن أنه تابع لذلك السيد مع الإحتفاظ بوصفه رجلا حرا.

وأضافت الكنيسة الواجهة المسيحية المعتادة على إحتفال الولاء وذلك بأن ألزمت التابع بأداء اليمين المقدس (13) على الكتاب المقدس، حيث يظل وفيا لسيده حتى آخر حياته ثم يرفعه السيد ويقبله ويمنحه "إقطاع" (fief) ويعطيه رمزا لهذه المنحة عبارة عن سنبلة أو سكين (14). وتسمى هذه العملية بالتقليد inveatitura (15). وفيما يلي نموذج لأداء يمين الولاء : "...سيدي إنني أدخل في تبعيتك

وعهدك وصرت رجلك بالقول والإشارة، وإنني لأقسم وأعد بأن أحافظ على العهد والولاء لك إزاء كل الآخرين وأن أبذل كل ما بوسعي من قوة للذود عن حقوقك (16)".

عندما أصبحت نسبة التعليم تتزايد في المجتمع أصبح من المعتاد أن يتم التصديق على منحة الأرض بفعل قانوني يسمى "الحجة" أو الوثيقة (17). وهكذا يتكون عقد إقطاعي يقيم علاقة قرابة حقيقية بين رجلين، لكنه قد يتحول إلى مجرد ضمانة ضد الإعتداء. وجدير بالذكر أن هذا الإخلاص منوط في جوهره بقوة كل من التابع وسيده، فالفارس الصغير التابع لسيد عظيم مضطر إلى أن يخدم بكل إنقياد وإخلاص ويختلف الأمر تمام الإختلاف حين يتم بين كبار الأسياد، حيث تحرر معاهدات حقيقية تنطوي على شروط غالبا ما تكون في وثيقة مكتوبة تتضمن وعودا بالخضوع والطاعة وتحدد بالتفصيل كيفية المساعدة الواجب أداءها مقابل منح "الإقطاع" (18).

وهنا ينبغي أن نشير إلى أنه لم تكن هناك غضاضة في تلك العصور أن يكون الفرد تابعا لغيره، لأن هذا التابع كان بدوره سيدا لمن دونه في الدرجة فضلا أن هذه التبعية تمنح صاحبها شرف الإنضمام إلى طبقة المحاربين (19).

2- الحقوق والواجبات

اختلف النظام الفيودالي في نشأته من مكان لآخر في أوربا الغربية وفق الظروف والملابسات، لكنه في جوهره قام على أساس العلاقة الشخصية التي ارتبطت بحيازة الأرض ذلك أن المتمتع بالأرض كان يتعهد بالتزامات معينة لسيده الفيودالي مقابل تعهد هذا الأخير بالتزامات أخرى لتابعه، وبعبارة أخرى فإن كلا من الطرفين كانت له حقوق وعليه واجبات اتجاه الطرف الآخر (20).

من المعروف أن التعاون في الحرب هو الغرض الأساسي من العلاقة الفيودالية فأهم وظيفة للسيد هي أن يتولى حماية أتباعه وإقطاعاتهم، أما الأتباع فكان لزاما عليهم أن يخدموا في جيش السيد (21). إذن ما هي هذه الحقوق والواجبات ؟

أ-واجبات التابع

-إلتزام التابع بالخدمة العسكرية في جيش سيده، ودرج العرف الفيودالي على أن تكون مدة هذه الخدمة أربعين يوما في السنة (22).

-إلتزام التابع بالحضور إلى بلاط السيد كلما طلب منه ذلك من اجل تحقيق عدة أغراض من بينها الإستشارة وتقديم النصيحة في حالة ما إذا عزم السيد على الإشتراك في حرب، أو اختيار زوج أو زوجة لإبنه أو لإبنته، وفي كل ما يتعلق بأمور "الإقطاع" (23).

-إلتزام الأتباع بالمشاركة في فدية السيد إذا وقع في الأسر (24).

-إلتزام الفلاحين بأعمال السخرة كإقامة الجسور وشق القنوات وتقطيع الأشجار، كما كان لزاماعليهم العمل ثلاثة أيام في الأسبوع في أراضي السيد وتزيد هذه المدة في أوقات الحرث والحصاد وتصل إلى أربعة أو خمسة أيام في الأسبوع (25).

-إلتزام التابع بدفع رسم يدعى الحلوان relief في حالة تولي وريث جديد أمور "الإقطاع" (26).

ومن بين هذه الإلتزامات ما يعرف بضريبة العون aid، وتدفع في حالة إحتياج السيد لموارد خاصة كإقامة حفلات أو تتصيب إبنه فارسا أو تأهيل كبرى كريماته (27).

ضريبة الضيافة: لم تكن في البداية محدودة، وبعد مضي الزمن تم تحديد زيارات السيد لأتباعه في عدد معين من المرات في السنة شرط ألا يصطحب معه في هذه الزيارات إلا عددا محددا من الأتباع والخيول وفي بعض الحالات حدد العرف الفيودالي حتى ألوان الأطعمة التي على التابع تقديمها لضيوفه (28).

كان أيضا مفروضا على الأتباع استخدام طاحونة السيد لطحن حبوبهم، ومعصرته لعصر جعتهم، وفرن السيد لطهي خبزهم، كل هذا كان مقابل أجر يؤديه الأتباع لسيدهم إما نقدا أو عينا كما يؤدي التابع أجرا أخر ليحوز حق الصيد أو القنص أو رعي الماشية في أراضي السيد (29).

الإمتناع عن القيام بأي عمل يلحق الضرر بالسيد واسرته (30).

2-حقوق التابع

من خلال ما سبق ذكره نلاحظ أن السيد الفيودالي خرج من تعاقده مع أتباعه بنصيب الأسد لأنه الطرف الأقوى وصاحب النفوذ والسلطان، ولكن رغم ذلك فإن هذا السيد كان مقيدا بشروط لا يستطيع التهرب منها دون أن يدفع ثمنا غاليا ومن بين هذه الإلتزامات :

-القيام بحماية الأتباع وتحقيق العدالة لهم

-منحهم أرضا يستغلونها طوال حياتهم تكاد تكون ملكا لهم

-تقديم المعونة لهم في حالة العجز والمرض أو الشيخوخة.

-من حق التابع عرض قضيته أمام محكمة من أنداده الذين غالبا ما يكون حكمهم لصالحه (31).

الباب الثاني الجانب العسكري والحربي

شهد هذا المجال تغييرات بطيئة لكنها أساسية تمت ما بين القرنين الخامس والثامن الميلاديين فمن المعلوم أن الجرمان كانوا يستخدمون المشاة في جيوشهم في أغلب الأحوال وكانوا يتبعون المبدأ القائل بتجنيد الشعب كله لحمل السلاح وكان الملك يستدعي جماهير المزارعين الأحرار لمساعدته في حروبه (32). وبدا جليا تفوق المحاربين الراكبين أي الفرسان الذين اشتركوا في الغزوات الجرمانية ضد جيوش الإمبراطورية الرومانية والهون وبعض القبائل الجرمانية وما أن حل القرن الثامن حتى كان هناك عدد متزايد من السادة الذين أقاموا جيوشا على أساس الجندي الراكب chevalier.

I-الفرســـان

وجب على الفارس أن يكون سليل أسرة نبيلة وكان يخضع لنظام تدريبي شاق وطويل يلتحق بأحد السادة الفيوداليين ليقوم بخدمته منذ صغر سنه حتى سن الرشد، فتتحول علاقته بهذا الأخير إلى علاقة تبعية يتعلم خلالها كفارس مبتدأ مبادئ القتال والفروسية ويعتاد على استخدام الأسلحة ويقوي جسمه وروحه بالتمارين والألعاب الشاقة والخطرة ويتعلم بالتقليد والتجربة فإذا أتم تدريبه تم تتويجه في سن العشرين أو الواحد والعشرين فارسا وذلك خلال حفل يشمل مراسيم رهيبة تبدأ بالإستحمام *- بوصفه رمزا للتطهير الروحي- وجاز تسميته "فارس الحمام" تمييزا له عن "فارس السيف" الذين التحقوا بسلك الفروسية من خلال شجاعتهم في ميادين القتال ويقول ويل ديورانت في وصف هذا الإحتفال: "...كان يرتدي في هذا الإحتفال قميصا أبيضا من فوقه رداءا أحمر ومعطفا أسود... وكان يصوم يوما كاملا ثم يقضي ليلة يصلي في الكنيسة ويعترف بذنوبه إلى أحد القساوسة فيتقدم على المذبح ومعه سيف يتدلى من عنقه، فيرفع القس السيف فيباركه فيضعه مرة أخرى فوق عنقه وبعد ذلك يتقدم إليه فرسان أو سيدات يلبسونه زرد الفروسية من درع على صدره وذراعيه، وقفازين من زرد في يديه. ثم يقوم السيد فيلطمه ثلاث لطمات بعرض السيف على عنقه أو كتفه ..." (33).

وهكذا ينضم الفارس الجديد إلى طبقة الفرسان والنبلاء بما يرافق ذلك من احتفالات.

II-الأسلحة الفيودالية

كان المحارب في فترة النظام الفيودالي يستخدم الحربة والسيف والقوس والسهام وكانت علاقته بسيفه علاقة حميمية حتى أنه يطلق عليه إسما ولعل أبرز مثال على ذلك سيف الملك آرثر "Excalibur" الذي حكيت حوله الأساطير كما استخدم القوس الذي اتخذ عدة أشكال فكانت هناك القصيرة والبسيطة تشد نحو الصدر، وقد تكون قوسا طويلة تشد نحو العين والأذن وقد تكون متقاطعة تطلق بواسطة زناد

وكان من أسلحة الفارس أيضا الحربة الطويلة المصنوعة من الصلب (34). هذا فيما يتعلق بالأسلحة الهجومية أما الأسلحة الدفاعية فقد كان أهمها الجواد الذي يحمل الفارس وعدته.

كان الفارس يغطي جسمه بالزرد من عنقه إلى ركبته تستره شبكة ذات أكمام لذراعيه وقلنسوة من الحديد تغطي كل رأسه عدى عينيه وأنفه وفمه ويكسو الجزء الأسفل من ساقيه بأربطة من القماش والجلد تمتد من الركبة إلى اسفل الساق (35).

وإذا كان في الحرب أضاف إلى عدته خوذة إضافية من الصلب ودرع مصنوع من الصفائح المعدنية لحمايته من القوس والنشاب وجدير بالذكر أن ثمن الدرع وحده كان يوازي مشروع إستثماري زراعي (36)، فما بالك بإمتلاك العدة الكاملة للفارس التي تكلف ثروة مهمة ودرجت العادة في الحروب الفيودالية أن يعطى للفارس كامل الوقت للإستعداد للحرب، وأن لا يتم الهجوم عليه حتى يستعد وكان لكل فارس عدد من الأتباع والمعاونين يساعدونه في ارتداء لباس الحرب أينما حل وارتحل وشهدت قوة الأسلحة الفيودالية تطورات هامة نتيجة تطور الحدادة وإنتاج النحاس والذي استخدم في صناعة الأسلحة كي يزداد صلابة (37).

أخيرا تجب الإشارة لمختلف الأسلحة التي استعملها المشاة من حراب وعصي غليظة ومقالع كما كان يستعمل المنجنيق لنصل في القرن الرابع عشر إلى استعمال البارود والمدافع التي وضعت حدا لتفوق الفرسان.

III-الحصون

إن تنامي الحروب والصراعات العسكرية الفيودالية أدى إلى تطور ظاهرة العمران الحربي (38). هذا العمران تجسد بشكل أساسي في بناء المعاقل والحصون التي كانت تشيد في البداية من الأخشاب ليتم استخدام الحجارة فيما بعد (39). كان يتخذها الأسياد مكانا للسكن بالإضافة إلى مهمتها الدفاعية، هكذا إنتشر ما يعرف بالحصون القوية châteaux forts (40)، خاصة في الثغور المسيحية المتاخمة للمسلمين في الأندلس وكان على السيد الذي يحاول بناء حصن أن يحسب حسابا للصعوبات المادية ومقاومة السكان، وتكالب أسياد الحصون المجاورة الرافضة للدخيل الجديد وبعد بناءه تدخل القرى العشر أو العشرين المحيطة بالحصن تحت حمايته وسلطانه، وبالتالي يتكلف صاحب الحصن بتحقيق السلام وتوفير الحماية للسكان مقابل خدمات مختلفة يقومون بتأديتها.

كان أول خط دفاعي من الخارج عبارة عن خندق عريض وعميق وكانت الأتربة الناتجة عن الحفر تكون حاجزا عاليا تدق فيها أعمدة مرتبطة فيما بينها لتكون سورا متصلا، ثم يلي ذلك جسر متحرك طرفه الداخلي مثبت يؤدي إلى باب حديدي كبير يحمي مدخلا في سور الحصن كان يوجد داخل هذا السور إسطبلات ومطبخ ومخازن وكنيسة صغيرة ومساكن للخدم مبنية عادة من الخشب، وينتصب

في وسطه برج أو بيت المالك وهو في الغالب برج مربع طويل من الخشب، وما إن شارف القرن الحادي عشر على الإنتهاء حتى صار يبنى من الحجارة متخذا شكلا دائريا ليسهل مهمة الدفاع عنه كان هذا البرج مظلما من الداخل وضيق وتستعمل الشموع في إضائته، وقد قسم إلى ثلاث طوابق في كل طابق حجرة واحدة، وكان الطابق الثاني يمثل البهو الرئيسي الذي يعقد فيه السيد محكمته ويستقبل فيه ضيوفه، وكان في نفس الوقت غرفة طعام وحجرة للجلوس وغرفة للنوم.

هكذا إعتبر الحصن الفيودالي مركزا أساسيا للسلطة والنفوذ وقاعدة استخدمها الأسياد لفرض سيطرتهم ونشر سلطانهم على الفلاحين والقرويين الساكنين في مجال سيطرته فإلى جانب الوظيفة العسكرية التي مارستها الحصون الفيودالية هناك أدوار أخرى مثل الوظيفة الإقتصادية.

IV-الحروب الفيودالية

1-فترات الحرب

إن من مميزات الحروب في القرون الوسطى هو كثرة عددها وقلة نفقاتها وانخفاض عدد ضحاياها، وكان الإنطباع السائد لدى السادة الفيوداليين هو أن لهم الحق في محاربة كل رجل لا تربطه بهم روابط الفيودالية، فإذا خرج السيد إلى الحرب بات لزاما على الأتباع أن يحاربوا إلى جانبه (41)، وكان كل تابع ملزما بالخدمة العسكرية لمدة أربعين يوما في السنة، وفي حالة ما إذا كان هذا التابع رجلا هاما يحوز "إقطاعا" كبيرا وجب عليه تقديم معونة عسكرية كعلاوة تتمثل في فرقة من الفرسان لجيش سيده (42).

وهكذا فلم يكن يمر يوم من أيام القرن الثاني عشر إلا واندلعت حرب في جزء من أجزاء فرنسا الحالية ورغم كثرة الحروب إلا أنها لا تبدو خطيرة وما يفسر هذا هو قلة عدد القتلى فيها يقول ول ديورانت: "ولم تكن الحرب شديدة الخطورة فها هو ذا اردركس فيتا ليس ordericus vitales يصف معركة بريمبول سنة 1119م يقول أنه لم يقتل إلا ثلاثة من الفوارس التسعمئة الذين كانوا يحاربون" وقد أسر أربعمائة فارس في معركة تينشبريه Tinchebrai سنة 106م والتي كسب فيها هنري الأول ملك إنجلترا بلاد نورماندیا، لكن فارسا واحدا لم يقتل من فرسان هنري الفاتح وفي واقعة بوفين Bouvine سنة 1214 وهي من المعارك الحاسمة في العصور الوسطى قتل مائة وسبعون فارسا من ألف ومائة الذين شاركوا في القتال (43)."

يتضح إذا أن هذه الحروب لم تكن دموية لأن ذلك راجع إلى الدروع التي كان الفارس يدفن نفسه فيها والذي كان يحرص على عدم قتل خصمه بل أخذه أسيرا ليبادله بفدية، لأن الفرسان كانوا غالبا يحاربون من أجل المال، وقد تلعب فضائل الشجاعة والشرف دورا كبيرا في ذلك بحيث يقوم الفارس المنتصر بالعفو عن خصمه ويسمح له أثناء القتال بارتداء عدته كاملة واستطاء فرسه، إضافة

إلى أنه من الصعب قتل الرجل الكامل العدة إلا إذا قطع رأسه وهو راقد على الأرض وهذا العمل لم تكن ترضاه خصال الفروسية الفيودالية.

كانت الميزة في هذه الحروب في جانب الطرف المدافع نظرا لمتانة الحصون والقلاع وتطور الأسلحة الدفاعية في مقابل ضعف الأسلحة الهجومية كما كانت هذه الحروب أقرب إلى أعمال السلب والنهب منها على الحروب بالمفهوم التقليدي لهذه الكلمة فقد كانت الجيوش تهجم على أراضي أتباع العدو وأرقاء أراضيه لنهب بيوتهم والإستيلاء على كل ما لم يتمكن من دخول أسوار الحصن من مواشي وغلال.

وهكذا كان الفلاحون أكثر المتضررين من هذه الحروب الفيودالية، وكان الذين ينجون من الموت قتلا يموتون بشكل بطيئ بسبب الجوع لقلة ما تنتجه الأرض من غلال وبسبب انحصار فترات السلام الضرورية للحرث والحصاد وغيرها من الأنشطة الفلاحية.

2-فترات السلم

للحد من هذه الحروب والنزاعات المستمرة خاصة في المناطق التي تضعف فيها السلطة بشكل كبير والتي لم تعد قادرة على حفظ السلام، قامت الكنيسة بالترويج لحركة سلمية تدعى "سلام الله" في مجمعي شارو وبيوي في سنتي 989م و990م على التوالي (44). وكان الهدف الأساسي من هذه الحركة هو محاولة تقنين وتقليل الحروب والعنف والأعمال المسلحة وفرض نوع من الحماية والأمن للضحايا الأكثر تضررا خاصة الفلاحين والكنيسة نفسها.

تميزت هذه الحركة إلى حدود منتصف القرن الحادي عشر بطابع شعبي ممزوج بمسحة دينية، وفيما بعد اتخذت طابع مؤسساتي (45). وفيما يخص عضويتها كانت تشمل كل الأسياد، "وكل من له سلطة من الله"، وكل الأغنياء والذين تنحصر مهمتهم في الحرب.

تنص مقتضيات هذه الهدنة بالإمتناع عن القيام بأعمال العنف حيال رجال الكنيسة والفقراء الذين ليس لهم من يدافع عنهم ويمتنع الأسياد في علاقاتهم المتبادلة عن اللجوء إلى السلاح (46)، خلال أوقات محددة تصل إلى عدة أيام في الأسبوع، أو إبان المناسبات والأعياد المقدسة (47)، وكان الجميع يتكتل ضد المخالف للميثاق بالإضافة إلى عقوبة الحرمان من حظيرة الذين يقول ديورانت: "...ولعلها في هذا كانت تذكر تحريم المسلمين للحرب في الأشهر الحرم فقالت: -أي المجامع الكنسية الفرنسية سنة 1027- على الناس جميعا أن يمتنعوا عن أعمال العنف طوال أيام الصوم الكبير وفي موسم الحصاد وقطاف الكروم من (15 أغسطس إلى 11 نوفمبر)، وفي أعياد محددة وفي جزء من كل أسبوع وأجاز هذه الهدنة في صورتها النهائية الحروب الخاصة أو الحروب الفيودالية ثمانين يوما في السنة (48)".

مما مكن من القضاء على الحروب الفيودالية شيئا فشيئا هو تزايد قوة الملوك، إضافة إلى محاولة بعض البابوات استغلال النزعة الحربية الطاغية في اتجاه بعيد أي توجيه السلاح المسيحي بعيدا عن الإقتتال الداخلي إلى الحروب الصليبية ضد المسلمين، كما أضحت "هدنة الله في القرن الثاني عشر جزاء من القانون المدني والكنسي في أوربا الغربية.

ونظرا لأن حياة السلم كانت تعني البطالة بالنسبة للمحاربين المحترفين الذين لا عمل لهم سوى الحرب، فإن هؤلاء ابتكروا تقليد المبارزة لمقاومة هذا الوضع، وكانت هذه المبارزات تتم بطريقة تمثيلية استعراضية تهدف إظهار أكبر قسط من المهارة بأقل قدر من الإصابات، يلتقي فيها فريقان ينتميان عادة إلى إقليمين مختلفين، ويحصل الفارس الفائز في هذه الحالة على نصر معنوي ومادي كبير بحيث يستولي على فرس خصمه وأسلحته(49). إلا أن هذا النوع من المبارزات سرعان ما خرج عن حالته الفردية ليتحول إلى مباريات تجري في أرض واسعة تكاد لا تتميز عن الحرب الحقيقية من كر وفر وفدية وتقاليد الشرف والإيمان التي تستند إلى قوانين الحرب(50)ت وقد أدى قتال جرى في منطقة نيوس Neuiss سنة 1240م إلى موت نحو ستين فارسا(51).

الباب الثالث: الجانب الاجتماعي

انقسم المجتمع الفيودالي إلى عدة طبقات متباينة في الإختصاصات والإلتزامات وبالتالي انتظم على شكل هرمي على رأسه الملك وفي قاعدته الفلاح الصغير، وهذه الطبقات الأساسية هي : فئة رجال الدين والنبلاء وأخيرا الفلاحين وقد ترسخ في أذهان الناس في تلك الفترة هذا التقسيم واعتقدوا أن الله هو الذي حدد هذه الفئات وحدد اختصاصاتها ومهامها منذ بداية الخليقة من أجل انتظام العالم، فوضع في الطبقة الأولى أولئك الذين يصلون ويتغنون بمجد الرب من أجل الحصول على الخلاص للجميع. وأحل في الثانية أولئك الذي يحاربون وحدد لهم مهمة الدفاع عن الضعفاء ونشر السلام الإلهي وأخيرا اختص الطبقة الثالثة جموع الفلاحين والعمال بمهمة الإسهام في إطعام الفئتين السابقتين وتم ترسيخ هذا التنظيم في أذهان الجماهير من خلال الأبحاث العلمية والمواعظ الدينية في مختلف المراسيم والأنشطة، كما تم تناقله من جيل إلى جيل وأصبح طيلة قرون الهيكل الأساسي للمجتمعات الأوربية.

I-طبقة رجال الدين

كانت هذه الطبقة مقسمة إلى طبقتين، فئة الكهنة برئاسة الأساقفة، وفئة الرهبان (52) وكان الكثير من الرهبان يعملون بأيديهم إضافة إلى أنهم يتلقون المعونة من الملوك والأسياد على شكل هبات من الأرض أو حصة من الإيرادات الفيودالية التي تراكمت في أيدي الكنائس حتى أصبحت هذه الكنائس من أكبر ملاكي الأراضي، ورؤساؤها من أكبر السادة الفيوداليين في أوربا ولكي نفهم بوضوح غنى هذه الطبقة سنذكر بعض الأمثلة يقول ويل ديورانت: "...فقد كان دير فلاذا مثلا يمتلك خمسة عشر ألف قصر صغير من قصور الريف، وكان دير سانت جول يمتلك ألفين من رقيق الأرض، وكان آل كوين في تور Tour سيدا لعشرين ألف من أرقاء الأرض"(53).

لم تكن هذه الطبقة منغلقة على ذاتها، فكان كل إنسان سيد نفسه يمكنه الدخول إليها شريطة التخلي عن أسلحته إن كان من المحاربين فيقدم ما يشبه الفدية ويتوقف المركز الذي سيحتله تبعا لأهمية هذه الأخيرة.

ولا تفوتنا الإشارة إلى الفوارق الشاسعة التي تفصل بين الكهنة المتواجدين في الكاتدرائيات وجلهم من أبناء السادة الذين يعيشون في رفاهية، وبين الرهبان الوضعاء القائمين بالخدمات الروحية في الأرياف وهؤلاء كلهم من أبناء الفلاحين الذين يستفيدون من عائد ضئيل وغالبا ما يشتغلون بأنفسهم في أراضي الكنيسة وهذا التمييز يعادل التمييز الحاصل بين طبقة الأغنياء وطبقة الفقراء.

II-طبقة النبلاء الفرسان [54]

كان الفارس كما أشرنا سابقا شخصا شريفا ينتمي إلى أسرة نبيلة تمتلك أرضا، ولم يكن يحق لجميع النبلاء أن يعمدوا فرسانا، فالأبناء وباستثناء الإبن الأكبر وأبناء الملوك لم يكن لهم في العادة إلا أملاك قليلة لا تفي بالنفقات التي تتطلبها الفروسية حيث كان كل فارس يتسلح وفق ثروته وهذا ما جعل فئة الفرسان المحترفين تمثل بالدرجة الأولى طبقة إقتصادية.(55).

وبما أن الإنتساب لهذه الطبقة كان يقتضي اقتناء حصان ومختلف الأسلحة الهجومية والدفاعية، فبالتالي كان لزاما عليه أين يكون صاحب رأسمال هام وهذا ما جعل إمتهان الفروسية يقتصر على كبار الملاكين العقاريين الذين يخدمهم عدد هام من العمال والأتباع بيد أن هذه الطبقة التي كانت مشرعة الأبواب لكافة الأغنياء سرعان ما أصبحت طبقة وراثية وكان هذا التسارع نحو الوراثة حثيث الخطى في فرنسا الوسطى اكتمل في الربع الأخير من القرن الحادي عشر بينما ظل بطيئا في غيرها ومن هنا لم يبق للثروة أي شأن في الإنتساب لهذه الطبقة بل أصبح النسب هو المعيار الوحيد، فورث أبناء الفرسان صفة الفروسية وحق لهم دون غيرهم عندما يكبرون أن ينخرطوا في فئة المحاربين الفرسان حيث كانوا ينصبون في احتفال عام بعد أن يتجاوزوا إمتحان الأهلية العسكرية)56).

كما كان الحال في الطبقة الأولى- رجال الدين- كان بين أعضاء هذه الفئة تفاوت ملموس فعدد قليل منهم كان من الأغنياء المتمتعين بامتيازات إعطاء الأوامر ومعاقبة الفلاحين أما الغالبية العظمى منهم فكانوا يعيشون حياة نصف قروية يشرفون على إدارة ممتلكاتهم الصغيرة بأنفسهم في أوقات السلم، ورغم هذا التفاوت إلا أنهم يشتركون مع الطبقة الأولى في معيشة المحاربين المحترفين ويكتسبون العقلية اللازمة لهذه المعيشة من خلال إعطاء اعتبار خاص للقوة الجسدية والميل إلى المآثر الرياضية في الحروب نفسها أو في التمارين العنيفة التي قد لا تختلف عن المعارك الحقيقية.

أما الإمتياز الأخر هو أن الفرسان أصبحوا منذ القرن الحادي عشر يشكلون طبقة حقيقية من النبلاء، فبسبب الخدمة التي كانوا يؤدونها للجماعة تم إعفائهم من الضرائب وتكون لديهم شعور بأنه لا يستطيع أن يعاقبهم أحد وأنه لا يتوجب عليهم سوى القيام ببعض الخدمات التي تعهدوا بها للسيد الفيودالي وبمحض إرادتهم (57).

III-طبقة الفلاحين والعمال

تختلف الظروف الإقتصادية لهذه الطبقة كل الإختلاف عن الطبقتين السابقتين وتضم هذه الفئة العمال الذين يحصلون من الأرض على ما يلزمهم وعائلاتهم، إضافة إلى أعداد من الذين لا يملكون شيئا وخدام المنازل لكن سواد هذه الطبقة كان من الفلاحين الأحرار الذين يمثلون أكثر السكان ومع أن أفراد هذه الطبقة تشابهوا في ظروفهم وأحوالهم إلا أنهم تفاوتوا إلى درجة ما في أصولهم ومدى الحرية التي تمتعوا بها وتتكون هذه الطبقة من لعبيد (les esclaves) والأقنان (les serfs) الذين تقاربت ظروفهم فاختلطوا وتداخلوا عن طريق اندماج العبيد في محيط الأقنان وشكل القرن التاسع بما شهده من فوضى طبقة جديدة من الأقنان ذوي الأصل الحر، لكن الظروف حتمت عليهم التضحية بحريتهم في سبيل تامين سلامتهم (58). وأوضح جورج جوردان كولستون أربعة أسباب آلت بالرجال الأحرار الى الرق وهي: "

أولا: قد يكونوا طلبوا للخدمة في الحرب فرفضوا وبالتالي عوقبوا بانزالهم إلى مرتبة القنية.

ثانيا : ربما يكونوا قد وهبوا أنفسهم للكنيسة.

ثالثا : قد يكونوا باعوا أنفسهم.

رابعا : أو للدفاع عن أنفسهم من خلال الدخول في حماية رجل قوي" (59).

كان معظم هؤلاء الفلاحين يتكتلون في قرى لا تزيد في الغالب عن أربعمائة فرد، كانوا يقضون جل أوقات حياتهم داخل القرية ولا يكادون يشاهدون من خارج القرية إلا القليل، أي أنه لم تكن لهم صلات بالعالم الخارجي الذي يقع خلف حدود قريتهم في حين كانت الكنيسة تهتم بالجانب الروحي لحياتهم ورغم الكد والجهد الذي يبذلونه إلا أن حياتهم لم تكن تخلو من أوقات الملاهي التي تتمثل أساسا في الأعياد والمناسبات الدينية (60).كما كانت مساكنهم متواضعة وبسيطة مصنوعة في الغالب من الأخشاب (61)، وكانت ملابسهم خشنة وبعيدة عن التأنيق (62) ومن جملة المشاكل التي كانت هذه الطبقة تعاني منها على سبيل المثال لا الحصر مشكل الزواج، فإذا أراد القن أن يتزوج امرأة من نفس الدومين فالأمر هين، ولكنه إذا أراد أن يتزوج من خارج الدومين فالسيد يتدخل لإفشال هذا المشروع لأنه في هذه الحالة يخشى فقدان القن وبالتالي يفقد يد عاملة وما أن حل القرن الحادي عشر حتى عمد الأسياد إلى فرض مبلغ كبير من المال سمي بضريبة الزواج (formarier-formariage) على القن الذي يود الزواج من خارج الدومين وحتى لو استطاع هذا الأخير الوفاء بالمبلغ فإنه سيظل في ضيعة والزوجة في ضيعة أخرى، وبما أن هذه الحالة تؤدي إلى تمزيق الأسرة فقامت الكنيسة بمعارضتها، وهكذا تضطر الزوجة إلى الإنتقال إلى ضيعة زوجها مقابل بذل يؤديه صاحب الضيعة إلى سيد الضيعة

التي جاءت منها الزوجة أما إذا أراد القن تزويج إحدى بناته فعليه أن يدفع رسما معينا يسمى merchet (63).

IV-المرأة في المجتمع الفيودالي

كانت النظرة العامة التي نظر بها رجال الدين إلى المرأة سلبية للغاية بل معادية، وكانت المرأة تشكل في نظرهم شرا لابد منه وجسدت صورة حواء التي بسببها خسر البشر العيش في الجنة، واعتبروها أداة محببة للشيطان يقود بها الرجال نحو الجحيم (64). إلا أن كثيرا من شعائر ومبادئ المسيحية رفعت من مكانتها ونظرت لها من زاوية مقدسة باعتبار أنها تمثل مريم العذراء أم المسيح، وهي بذلك تكون جديرة بكل احترام وتقدير (65).

أما فيما يتعلق بالقانون المدني فكان أشد قسوة لأنه أجاز ضرب الزوجة ونص على عدم السماح للنساء بالكلام في المحكمة بسبب ضعفهن، وكان يعاقب على الإساءة للمرأة بنصف الغرامة التي تفرض على الرجل نظير الإساءة نفسها كما منعهن من تمثيل ضياعهن في البرلمان الإنجليزي والجمعيات العامة للطبقات بفرنسا (66).

أما العرف الفيودالي فقد فرض على المرأة أن تكون دائما تحت وصاية الرجل، الأب أو الزوج أما الأرملة فقد تكون تحت وصاية السيد أو الإبن الأكبر (67). ولم يكن باستطاعتها أن تباشر حقها في إدارة ممتلكاتها إلا بوجود هذا الوسيط.

وفيما يتعلق بحياتها اليومية فكانت تمارس أعمال البيت من طبخ وغزل ملابس العائلة إضافة إلى مباشرتها لأعمال المزرعة ومساهمتها في الحرث والحصاد والإهتمام بالحيوانات هذا بالنسبة للمرأة في القرى أما في المدن كانت تباشر على الخصوص صناعة الجعة وغزل الصوف إلا أنه ورغم هذا القمع الظاهر الذي تتعرض له المرأة فإنها كانت تتمتع بكامل حريتها –أيا كانت الطبقة الإجتماعية التي تنتمي إليها – بدون أن يكون معها محرم في الأسواق وحضور الحفلات، كما كانت ترافق الرجال في الحج وتشترك في الحروب الصليبية مشاركة فعلية وليس فقط أداة للمتعة والتسلية وزاد من رفعة مكانتها تنافس الفرسان من أجل نيل رضاها وتسابق الشعراء للتغزل بها.

وتاريخ العصور الوسطى عامة حافل بنماذج لنساء عظيمات مثل إليانور زوجة لويس السابع ملك فرنسا، وهنري الثاني ملك إنجلترا فيما بعد، ووالدة ريتشارد قلب الأسد التي بلغت من القدر ما لم يبلغه أكثر رجال تلك الفترة (68).

وعليه فإن النظر للمرأة في المجتمع الفيودالي كان يتسم بالتناقض فتارة يحقر قدرها وتارة أخرى يرفع هذا القدر ويمجد إلى درجة التقديس.

الباب الرابع : الجانب الاقتصادي

شكلت الأرض كما سبقت الإشارة، القاعدة التي يعتمد عليها النظام الفيودالي فبدونها ينعدم الإنتاج الزراعي وبالتالي لا يتحقق الإكتفاء الذاتي للسكان الذين يتزايدون باستمرار إذن للحديث عن هذا الجانب في غرب أوربا لا بد لنا من تفسير كيفية توزيع الأرض بين الناس، وطرق فلاحتها تلك الأرض التي على أساسها انقسمت المجتمعات إلى طبقاتها المعروفة في العصور الوسطى.

I-الضيعة

كان النظام الضيعي أو السنيوري قديما، ترجع أصوله إلى الرومان والجرمان ولكن الجديد هو أن أوربا الغربية اتخذت هذا النظام أساسا للحياة الإقتصادية، وفي هذه الفترة تلاشت أهمية المدن وضعفت التجارة، وأصبحت الضيعة تشكل وحدة إقتصادية قائمة بذاتها ولا تربطها بغيرها أي روابط تجارية (69).

والمقصود بالضيعة (Manor) هنا هو أنها كانت تشكل وحدة نظام الملكية الزراعية كما كان "الإقطاع" تشكل وحدة النظام الفيودالي، ويعني هذا أن "الإقطاع" يمكن أن يتألف من عدة ضياع كان يحكمها سيد يتمتع بسلطة شبه مطلقة وكان إنتاج الضيعة يحقق الإكتفاء الذاتي للسيد والأتباع.

لم يكن نظام الضيعة بسيطا كما يتبادر للذهن لأن الضيعة في العادة تألفت من قرية وأراضيها، إلا أننا نجد زمام القرية الواحدة مقسم بين عدد من السادة الملاك كل منهم يطلق على الجزء الخاص به ضيعة كما نجد في حالات أخرى تجمع بعض القرى المتقاربة لينشأ من تجمعها ضيعة واحدة ولعل هذه الإستثناءات دفعت بعض الكتاب المحدثين إلى استعمال اسم "القرية" للدلالة على الوحدة الإقتصادية والإجتماعية في المجتمع الريفي في أوربا الوسيطة بدلا من اسم الضيعة ويرى جورج جوردان كولستون أن القرية كانت تمثل الوحدة الإدارية والكنيسة، في حين كانت الضيعة تشكل الوحدة الإقتصادية (70).

ما تجدر الإشارة إليه هو أن الضيعة لم تكن مجرد مجموعة من الأكواخ يتوسطها حصن السيد السنيوري، وتحيط بها الأراضي الزراعية والمراعي والغابات، وإنما كانت في حقيقة الأمر اتحادا أو هيئة من الفلاحين المتعاونين يعملون على فلاحة الأرض واستغلالها وسد حاجياتهم من محاصيلها (71)، فمزارعوا الضيعة الواحدة كانوا يشتركون في حرث الأرض وتقرير أنواع المحصولات التي يزرعونها (72).

II-الإقتصاد الزراعي

الواقع أن المجتمع في أوائل العصور الوسطى كان قرويا وزراعيا، وما تميزت به الإمبراطورية الرومانية في بدايتها من حياة المدن والنشاط التجاري الواسع دمرته الحروب الداخلية في القرن الثالث الميلادي وزادته غارات الجرمان انحطاطا خلال القرن الخامس ولفهم هذا المجتمع الزراعي لا بد لنا من الوقوف على خصائصه الجوهرية وأنماط المساكن والوسائل التي يتم بها استغلال الأرض، فقد عرف غرب أوربا نوعين من المساكن: المنازل والمداشر ثم القرى سادت المداشر عامة في الأقاليم ذات التربة الضعيفة كإسكتلندا وغرب نورمنديا والمرتفعات الوسطى لفرنسا أما القرى فشاعت في الأقاليم المعروفة بشدة خصوبتها، فانقسمت إلى قسمين كبيرين قسم شمل معظم إنجلترا وشمال نهر اللوار، وشرق مصب نهر السين، وتجري زراعته بمقتضى النظام المعروف بالحقلين أو الحقول الثلاثة.

ويعتبر غرب أوربا من أهم المناطق التي شاع فيها استخدام هذين النظامين نظرا لكثافة سكانها وكثرة ثروتها وقوتها (73).

1-طرق استغلال الأرض

كانت الزراعة عموما سواء في أراضي السيد أو باقي "الإقطاعية" تتم أحيانا طبقا لنظام الحقلين ولكن عادة طبقا لنظام الحقول الثلاثة كانت الأراضي الصالحة للزراعة تقسم إلى حقلين أو ثلاثة طبقا للنظام الأول، كانت الدورة الزراعية تتميز بالإنتقال من دورة الحبوب إلى ترك الأرض بورا لإراحتها بالتعاقب من سنة لأخرى أما النظام الثاني فكانت فيه الدورة ثلاثية حيث يبذر القمح في السنة الأولى، يليه الشعير في السنة الثانية، وفي الثالثة تترك الأرض بورا لإراحتها (74).

كانت الزراعة في العصور الوسطى تتم غالبا على المشاع، أما الحدود الحقيقية فظلت مثار نزاع دائم بين الناس، ولاشك أن الأراضي المملوكة كانت في البداية عبارة عن قطعة واحدة غير مجزأة، ومع مرور الزمن ونتيجة تقسيمها بين الأبناء أو تحويلها للغير انقسمت الأرض ثم تشتتت (75).

من مميزات الإنتاج الزراعي في العصور الوسطى أن الفدان الواحد لم يكن يعطي محصولا كبيرا وفي هذا خطر كبير لأن الحبوب كانت تشكل الغذاء الأساسي للسكان، و الدريس (العلف) كان الغذاء الخاص بالماشية ومن أسباب نقص الإنتاج في تلك الفترة هو الإستعمال الشائع للمحراث الثقيل الذي يجره ما بين أربعة وثمانية ثيران، إضافة إلى الإعتماد على الشرائح الضيقة الطويلة.

وإذا استعرضنا التنظيم الإقتصادي لقرية تسير وفق نظام الحقلين أو الحقول الثلاثة فإننا نجد أنه كانت لكل بيت حديقته ومحاصيله في الحقول، ثم نصيبه من العلف وكان بوسع الحائز للأرض أن يطلق حيواناته لتقتات على الكلأ، ويسوق خنازيره إلى غابات القرية للرعي، وأن يجمع من الأخشاب الجافة

ما يصلح للوقود، وأن يصيد السمك من الغدران وخلاصة القول أن موارد الفلاح الإقتصادية تمثلت في حديقته ومحاصيله في الحقول وتعتبر المشاركة الإقتصادية الصفة البارزة للقرية (76).

نستنتج إذن أن الفلاح في العصور الوسطى كان في حالة لا يحسد عليها، كما تم في بداياتها الإهتمام بالفلاحين لأنهم في القرنين العاشر والحادي عشر كونوا الجانب الأكبر من المشتغلين بالزراعة في انجلترا وفرنسا وغرب ألمانيا وفي القرنين الحادي عشر والثاني عشر وضع فلاحو غرب أوربا أساس سيادة إقتصادية وسياسية مكنت من تحقيق كثافة في الإنتاج الفلاحي بسبب تزايد السكان، وارتبطت هذه القفزة الإنتاجية بتحسين أساليب الزراعة وذلك باستخدام الحصان محل الثور، إضافة إلى امتداد رقعة الأراضي الزراعية على حساب الغابات والمستنقعات والأراضي المهملة التي هجرها أهلها فترة الفوضى والإضطرابات خلال القرنين التاسع والعاشر، وهكذا تم استصلاحها وحرثها، مثلا في إنجلترا وفرنسا وغرب ألمانيا تولى السادة إزالة الغابات واستغلال الأراضي بعد استصلاحها وبما أن قطع الغابات واستصلاح الأرض يحتاج إلى مجهودات شاقة لجأ السادة الفيوداليين إلى إغراء فلاحيهم فعملوا على تخفيض ما يتقاضونه من إيجارات وخدمات منهم وبالتالي تحسنت أحوالهم نسبيا.

ولعل أوضح صورة تؤدي إلى فهم الإقتصاد الزراعي بشكل جيد هي أن ندرس ما جاء في سجلات القديس جيرمن دوبريه بفرنسا، وهو من أكبر الأديرة في الإمبراطورية الكارولنجية، وجرت هذه الدراسة زمن إرمينو رئيس الدير ما بين سنة 811م و829م، وتصف هذه الدراسة معظم الدير ومساحة أراضيه، رغم أن الوثيقة ليست كاملة لأن أهم ما ضاع منها ذلك الجزء الذي يتعلق بالأراضي التي بذلها الدير "إقطاعات" ومع أن مساحة الأراضي الواردة فيما تبقى من الوثيقة لم تؤلف سوى نصف ما يمتلك الدير من الأراضي إلا أنها تعتبر بالغة الأهمية ولا نتوقع الدقة في مساحة الأراضي نظار لاختلاف المقاييس من مكان لأخر وما ورد هنا من إحصائيات إنما تدل على ما كان للدير من ثروة (77).

III-الضرائب الفيودالية

بعد تطور العلاقة الفيودالية بين السادة وأتباعهم تنوعت الإلتزامات المفروضة على الأتباع فظهر منها ما هو حربي واجتماعي ومالي وسنركز هنا على مختلف الضرائب التي صاغها العرف الفيودالي في غرب أوربا:

***ضريبة الحلوان** : وهي أشبه بضريبة الميراث في عصرنا الحالي، وكانت تدفع كلما تولى على "الإقطاع" وريث جديد من سلالة صاحب الإقطاع المتوفى، ولم تكن هناك قاعدة محددة لتحديد قيمتها، لكن بعض الشواهد دلت على أن المبلغ يساوي دخل "الإقطاع" عن عام كامل.

***ضريبة المعونة** : (aid) وهي أموال يقدمها التابع لسيده في مناسبات خاصة.

*ضريبة الرأس **census, cheveaux** : يتعين على القن دفعها سنويا للسيد إما نقدا أو عينا سواء من الزبد أو الشمع، ويبدو أنها ضريبة تافهة لكن الغرض الأساسي هو أن تظل رمزا للعبودية والخضوع.

*ضريبة champart: تفرض على إنتاج الأرض والماشية ومقدارها عشر الإنتاج، وتخص كل ما تنتجه الأرض من حبوب وخضر وعلى الماشية والدجاج وغيرها...

*ضريبة الولاية : يدفعها الأقنان مقابل السماح لهم برعي ماشيتهم في مراعي الضيعة.

*ضريبة الأسماك : يدفعها الفلاحون مقابل السماح لهم بالصيد في المغادر.

وركز ج.ج كولستون في دراسته للضرائب الفيودالية على النفوذ الكنسي حيث يقول : "إنه كان من الممكن أن يذهب جانب من عشر الأبرشية إلى فقراء الأبرشية نفسها وأكثر منه بقليل إلى المتسولين القابعين عند بوابة ذلك الدير النائي الذي كان يستولي على ثلثي ما كان يدفعه القرويون..." (78) ويضيف أيضا: "...وفضلا عن ذلك فقد كان نظام الواجبات الكنسية في جملته سببا لإحداث قدر كبير من الإحتكاك، وفيما عدا العشور كانت كل هذه الهبات اختيارية، ثم تحولت بحكم العادة إلى هبات إجبارية وكانت العشور ضريبة ثقيلة للغاية بحيث تسدد بواقع شلين عن كل جنيه وكانت تمتد إلى الطبقات الدنيا حتى تصل إلى خدم المنازل..." (79).

وهكذا نلاحظ أن النفوذ الكنسي كان يفرض نفقات كبيرة على الفلاحين وهذا ما خلق اصطدامات ومخاصمات بين الطرفين.

بالإضافة إلى ماسبق يذكر لنا ج.ج كولستون ضريبة تسمى الغرامة heriot المفروضة في شكل بهائم حية أو مواشي مذبوحة، ثم ضريبة الوفاة Moritary وكانت من أشنع الإلتزامات قاطبة، لأنه عندما يموت أحد الفلاحين كان السيد يستولي على ما تركه من أجود ممتلكاته من حيوانات باعتباره ملكا غير موروث بالرغم من أن أسرته في أمس الحاجة لتلك الممتلكات كان في المدن أجمل رداء يؤخذ على أنه ضريبة الوفاة أوالسرير الذي مات عليه الرجل.

والواقع أن توافر الموارد النقدية زاد من تقوية مركز الأمير الفيودالي وصار باستطاعته أن يستأجر العساكر للقتال من أجله ولم يعد يركن للخدمة العسكرية التي تبذلها أتباعه لم يعد هذا الأخير يقتصر على استئجار العساكر بل أصبح بوسعه أن يستأجر الموظفين وهكذا نخلص إلى أن السادة الفيوداليين الكبار استفادوا من هذه التغييرات الإقتصادية فانتفع منها إلى أقصى حد دوق نورمنديا، وكونت شامبانيا، والملوك الكابتيون باعتبارهم ملوك فرنسا هذه الأحوال العامة هيئت للملك أن يوطد سلطته في أملاكه، والواقع أن مهارة الملك إقترنت بمدى قدرته في زيادة أملاكه على حساب كبار الأتباع.

الباب الخامس: الجانب السياسي والإداري

ما أن حل القرن الحادي عشر والثاني عشر حتى وصلت أوربا إلى درجة عالية من إنهيار مفهوم السلطة المركزية في الوعي الأوربي لهذا فقدت السلطة بشكل عام قوتها ورونقها وبالتالي أصبحت تمثل مرتبة متدنية في اهتمام الجماهير أضف إلى هذا أن السمة العامة للنظام الفيودالي كانت معادية للسلطة المركزية، وكان هذا النظام يعني في جوهره لا مركزية الحكم (80).

الملاحظة الأولى التي يلاحظها المتتبع لتاريخ أوربا في القرنين الحادي عشر والثاني عشر هو غياب تلك التكوينات السياسية الكبرى كالإمبراطوريات والملكيات وكانت القوة المتواجدة منها ترتكز على وكلاء ووسطاء محليين لبسط النظام والأمن في الأقاليم (81)، تربطهم بالملك رابطة الثقة والولاء.

I-السلطة التنفيذية

إن الهرم الفيودالي الذي يتربع على رأسه الملك (82)، يعطي انطباعا خاطئا، فملوك أوربا الفيودالية لم يكونوا ملوكا لشعوبهم بقدر ما كانوا مندوبين من قبل كبار السادة الفيوداليين فقد كان هؤلاء بالإضافة إلى كبار رجال الدين هم الذين يوافقون على اختيارهم (83). وكان سلطانهم المباشر منحصرا في أملاكهم الفيودالية أو ضياعهم الخاصة ورغم أن السادة من دوقات وكونتات يدينون بالولاء للملك إلا أن أتباعهم لم يكن لهم هذا الولاء الذي اقتصر على السيد الذي منحهم "الإقطاع" وقلما كانوا يدينون بهذا الولاء للملك.

لم يكن الملك في ظل هذا النظام يعلو عن الأمير أو الدوق أو الماركيز إلا قليلا، لقد كان هذا الملك سيدا فيوداليا تقتصر موارده المادية على ريع أراضيه، ويعتمد في الحرب والسلم على المعونة العسكرية أو الخدمة السياسية التي يؤديها له تابعوه، كما أنه كان عاجزا عن التدخل في اختصاصات أتباعه القضائية وأمور ممتلكاتهم، إلا في قضايا الإعدام التي تستأنف لديه ولم يكن بوسعه إرسال موظفيه أو جباة الضرائب إلى ممتلكاتهم أو يمنعهم من عقد المعاهدات أو خوض الحروب من تلقاء أنفسهم، يقول ف.نورمان كانتور في هذا الصدد :"كان ملك فرنسا في القرنين العاشر والحادي عشر سيدا على كبار الأمراء الفيوداليين بيد أنه لم يكن يتمتع بأي سلطان حقيقي على أفضاله من الدوقات والكونتات لأنه ليس هو السيد الأعلى على أفضالهم الصغار، وظالما كان الملك القابع في باريس عاجزا عن هزم دوق نورماندیا أو كونت تولوز، فإنه لم تكن له أية سيطرة عليهما أوعلى غيرهما وذلك على الرغم من أنهما يتبعانه من الناحية الرسمية، فقد كان جيش دوق نورماندي أقوى كثيرا من جيش الملك" (84).

يتضح أن الملك في ظل النظام الفيودالي كان يمتلك من الناحية النظرية جميع أراضي الملاك، ولكنه لم يكن في واقع الأمر إلا مالكا من كبار الملاك، وكانت قوته الضعيفة عاجزة عن حماية المراكز الأمامية المبعثرة في أنحاء المملكة، وبالتالي فإن سلطته إسمية وكانت الدولة -بمفهومها الحالي- هي ضيعة الملك.

II-الكنيسة

بعد أن غدت الملكيات مجرد مناصب روحية غير ذي فائدة، إلا أن مهمتها كانت هي الحفاظ على الأمن والعدالة الضروريين للمجتمع المسيحي، فإن هذا الدور أمنته بالدرجة الأولى الكنيسة التي عملت منذ العهد الكارولنجي لأن تحل محل الملوك المستضعفين (85). والملاحظة التي يجب الإشارة إليها هنا هي أن نظرة رجال الدين للنظام الفيودالي عرفت تغيرات جذرية، فكانوا في عهد الإمبراطورية الكارولنجية يوجهون للنظام الفيودالي انتقادات مريرة لأنهم يعتقدون أن نظام السيادة الفيودالية سوف يؤدي إلى انهيار الإمبراطورية المسيحية، لكن سرعان ما توافقوا مع هذا النظام الجديد واندمجوا فيه وأضحى الأساقفة سادة فيوداليين لهم أتباع شأنهم في ذلك شأن النبلاء (86)". وبالتالي لم يعد من الغريب أن نجد في بعض الأحيان أسقفا أو رئيس دير مالكا لضيعة.

هكذا أغدقت الأموال الكنيسة من طرف الملوك والسادة على شكل هبات من الأرض، وبسبب تراكم هذه الهبات أصبحت الكنيسة من أكبر ملاكي الأراضي، والأساقفة من أكبر السادة الفيوداليين في أوربا، بل الأكثر من ذلك أصبح رجال الدين يلقبون بألقاب دوقات وكونتات وغيرها ويضطلعون بالخدمات العسكرية وغيرها من الواجبات الفيودالية، وبالتالي أصبحت الكنيسة مؤسسة فيودالية وجزء لا يتجزأ من مكوناته، إضافة إلى دورها الروحي أصبح لها دور سياسي واقتصادي وحربي، (87) مبتعدة بذلك عن رسالة المسيحية الداعية للسلام وتحقيق الخلاص للبشر بل ظلت سيفا مسلطا على رقاب العباد ولا تختلف في تعاملها معهم عن تعامل أي سيد فيودالي في طغيانه وجبروته.

III-القضـــاء

تمثلت المرحلة النهائية من تطور النظام الفيودالي في انتقال السلطة القضائية إلى كبار أتباع الملك الذين نقلوها بدورهم إلى أتباعهم فصاحب السيطرة على الأراضي له دائما سيطرة سياسية وقضائية على الفلاحين التابعين وما أن حل منتصف القرن العاشر في فرنسا حتى كانت المحاكم الفيودالية الخاصة قد استولت على آخر امتيازات الملوك الكارولنجيين ومارست جميع صلاحياتهم القضائية (88).

وكانت هذه المحاكم تنظر في القضايا والمنازعات التي تطرأ بين السيد وتابعه أو بين الأتباع أنفسهم، أي في حالة إخلال أحد الطرفين بواجب من واجباته كما كانت تنظر في النزاعات الناشئة حول وراثة الإقطاع (89). وتعقد غالبا في بيت السيد ويحضرها محلفون من الأعيان ضمن ينتمون لنفس الدومين والذين يجب أن لا تقل منزلتهم عن منزلة الشاكي نفسه (90).

مما لاشك فيه أن هذه المحاكم عادت بفوائد جمة على السادة الفيوداليين لأنهم -ببساطة- كانوا يقرضون غرامات مالية على المذنبين أما في حالة الحكم بالإعدام الذي يستأنف محكمة الملك (91).فقد كان السيد يستولي على جميع ممتلكات المحكوم عليه بالإعدام (92).

خاتمة :

وخلاصة القول لم يكن النظام الفيودالي بحال من الأحوال يمثل الفوضى والإنحلال والإنحطاط في أوربا القرون الوسطى، لأنه كان يشكل نظاما تعاقديا يربط مجموعة من الأطراف في إطار محدد وواضح من الحقوق والواجبات.

ورغم أن ظهوره صادف ضعف السلطة المركزية بصفة عامة وانحلال سياسي شامل -خاصة فترة الإمبراطورية الكارولنجية- إلا أنه لم يكن سببا فيها بقدر ما كان نتيجة لها وبتعبير آخر فإن هذا النظام كان يعتبر الوسيلة الفعالة التي توصلت إليها أوربا الغربية لتجاوز هذا الوضع المتسم بالفوضى وذلك من خلال وضع نظام للحكم يفي بحاجيات المجتمع في مختلف الميادين حربية كانت أو اقتصادية أو إدارية وحتى قضائية (93).

هوامش الفصل الثاني

1- حناوي (محمد)، دليل المصطلحات في التاريخ الأوربي الوسيط، ج1 الرباط، 2002/03 ص 49.

2- ديورانت (ويل)، قصة الحضارة، الجزء3 من المجلد 4، القاهرة، 1964، ص 405.

3- عاشور (سعيد ع الفتاح)، حضارة ونظم أوربا في العصور الوسطى، بيروت، 1976، ص 38.

4- كانتور(ف.نورمان)، العصور الوسطى الباكرة، القرن الثالث/القرن التاسع الميلادي، القاهرة 1993. ص335-336.

5- كانتور (ف.نورمان)، العصور الوسطى الباكرة،...ص 336.د

6- ديورانت (ويل) قصة الحضارة ج3....ص 405.

7- كانتور (ف.نورمان)، العصور الوسطى الباكرة،...ص 337.

8- كانتور (ف.نورمان)، العصور الوسطى الباكرة،...ص340.

9- العريني(الباز)، تاريخ أوربا في العصور الوسطى بيروت، 1968، ص405.

10- كانتور(ف.نورمان)العصور الوسطى الباكرة،....ص 341.

11-كولستون (ج.ج) عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة بيروت 1981ص 411.

12-كولستون (ج.ج) عالم العصور،....ص 41.

13-كانتور (ف.نورمان) العصور الوسطى...ص 339.

14-كانتور (ف.نورمان)، العصور الوسطى....، ص339.

15-عاشور (سعيد ع الفتاح)، حضارة ونظم ....، ص 383.

16-العريني (الباز) تاريخ أوربا....، ص407.

17-كانتور (ف.نورمان) العصور الوسطى ...ص339.

18-بروي (إدوار) تاريخ الحضارات العام، مجلد III بيروت، 1965، ص291.

19-عاشور (سعيد ع الفتاح)، حضارة ونظم...، ص383.

20-عاشور (سعيد ع الفتاح)، حضارة ونظم...، ص 386.

21-العريني (الباز)، تاريخ أوربا...، ص396.

22-كانتور (ف.نورمان)، العصور الوسطى...، ص 430.

23-العريني (الباز)، تاريخ أوربا...،397.

24-ديوارنت (ويل)، قصة الحضارة...، ص412.

25-ديورانت (ويل)، قصة الحضارة،...، ص412.

26-عاشور (سعيد ع الفتاح)، حضارة ونظم...، ص390.

27-العريني(الباز)، تاريخ أوربا...، ص398-3990

28-العريني (الباز)، تريخ أوربا...، ص399.

29-ديورانت (ويل) قصة الحضارة...، ص411.

30-العريني (الباز)، تاريخ أوربا...، ص401.

31-عاشور (سعيد ع الفتاح)، حضارة ونظم...، ص343.

32-كانتور (ف.نورمان)، العصور الوسطى.....، ص336.

33-ديورانت (ويل)، قصة الحضارة....، ص447.

34-انظر ملحق الخرائط والأشكال الصورة رقم 2.

35-عاشور (سعيد ع الفتاح)، حضارة ونظم...، ص404.

36-بروي (إدوار) تاريخ الحضارات العام...، ص 287.

37-حناوي (محمد) دليل المصطلحات...، ص59.

38-حناوي (محمد)، دليل المصطلحات....، ص29.

39-بروي (إدوار) تاريخ الحضارات العام.....، ص285.

40-حناوي (محمد) دليل المصطلحات...، ص29.

41-ديورانت (ويل) قصة الحضارة...، ص443.

42-كانتور (ف.نورمان) العصور الوسطى الباكرة...، ص340.

43-ديورانت (ويل) قصة الحضارة...، ص443.

44-بروي (إدوار) تاريخ الحضارات العام.....، ص284.

45-حناوي (محمد) دليل المصطلحات...، ص83.

46-بروي (إدوار) تاريخ الحضارات العام...، ص285.

47-حناوي (محمد) دليل المصطلحات.....، ص84.

48-ديورانت (ويل) قصة الحضارة.....، ص445.

49-انظر ملحق الخرائط والأشكال الصورة رقم 3.

50-بروي (إدوار) تاريخ الحضارات العام...، ص288.

51-ديورانت (ويل) قصة الحضارة،.....، ص450.

52-بروي (إدوار) تاريخ أوربا...، ص286.

53-ديورانت (ويل) قصة الحضارة...، ص428.

54-انظر ملحق الخرائط والأشكال الصورة رقم 4.

55-بروي (إدوار) تاريخ الحضارات...، ص 286.

56-بروي (إدوار) تاريخ الحضارات...، ص288.

57-بروي (إدوار) تاريخ الحضارات...، ص288.

58-عاشور (سعيد ع الفتاح) حضارة ونظم...، ص410.

59-كولستون (ج.ج) عالم العصور الوسطى...، ص80.

60-مثل عيد القديس ميخائيل الذي يقع في 29 سبتمبر من كل عام وكذا عيد القديس متى الذي يوافق 21 سبتمبر.

61-انظر ملحق الخرائط والأشكال الصورة رقم 5.

62-العريني (الباز) تاريخ أوربا...، ص387.

63-عاشور (سعيد ع الفتاح) حضارة ونظم....، ص423.

64-ديورانت (ويل) قصة الحضارة الجزء 6 من المجلد4، القاهرة، 1958، ص187.

65-عاشور (سعيد ع الفتاح) حضارة ونظم....،ص427.

66-ديورانت (ويل) قصة الحضارة .....، ص188.

67-عاشور (سعيد ع الفتاح) حضارة وتظم .....، ص427.

68-ديورانت (ويل) قصة الحضارة....، ص190-191-192.

69-انظر ملحق الخرائط والأشكال الصورة رقم6.

70-عاشور (سعيد ع الفتاح) حضارة ونظم...، ص411-413.

71-انظر ملحق الخرائط والأشكال الصورة رقم 7.

72-عاشور (سعيد ع الفتاح) حضارة ونظم...، ص418.

73-العريني(الباز) تاريخ أوربا.....، ص385-386.

74-انظر ملحق الخرائط والأشكال الصورة رقم 8.

75-كولستون (ج.ج) عالم العصور.....، ص84.

76-العريني (الباز) تاريخ أوربا.....، ص386-387.

77-انظر ملحق الخرائط والأشكال الوثيقة رقم 9.

78-كولستون (ج.ج) عالم العصور.....، ص121.

79-كولستون (ج.ج) عالم العصور.....، ص121.

80-كانتور (ف.نورمان) العصور الوسطى.....، ص342.

81-بروي (إدوار) تاريخ الحضارات....، ص284.

82-كانتور (ف.نورمان) العصور الوسطى....، ص342.

83-ديورانت (ويل) قصة الحضارة الجزء 3 من المجلد 4، القاهرة، 1964ص 429.

84-كانتور (ف.نورمان) العصور الوسطى....، ص342.

85-بروي (إدوار) تاريخ الحضارات....، ص284.

86-كانتور (ف.نورمان) العصور الوسطى....، ص341-342.

87-ديورانت (ويل) قصة الحضارة....، ص425.

88-كانتور (ف.نورمان) العصور الوسطى....، ص338-339.

89-العريني (الباز) تاريخ أوربا....، ص392.

90-ديورانت (ويل) قصة الحضارة...، ص435-436.

91-كولستون (ج.ج) عالم العصور.....، ص43.

92-عاشور (سعيد ع الفتاح) حضارة ونظم.....، ص423-424.

93-عاشور (سعيد ع الفتاح) حضارة ونظم.....، ص397.

94-البطريق (ع المجيد) ونوار (ع العزيز) التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا بيروت 1974، ص11.

95-ديورانت (ويل) قصة الحضارة ج. مجلد 4 القاهرة 1958، ص347.

96-فشر (هربرت) أصول التاريخ الأوربي الحديث من النهضة الأوربية إلى الثورة الفرنسية القاهرة، 1965، ص07-08.

97-ديورانت (ويل) قصة الحضارة....، ص348.

98-فشر (هربرت) أصول التاريخ....، ص08.

99-ديورانت (ويل) قصة الحضارة....، ص349.

100- ديورانت (ويل) قصة الحضارة....، ص349.

101- ديورانت (ويل) قصة الحضارة....، ص351.

102- فشر (هربرت) أصول التاريخ....، ص09.

103- نسيم (جوزيف) نشأة الجامعات في العصور الوسطى بيروت 1981، ص19.

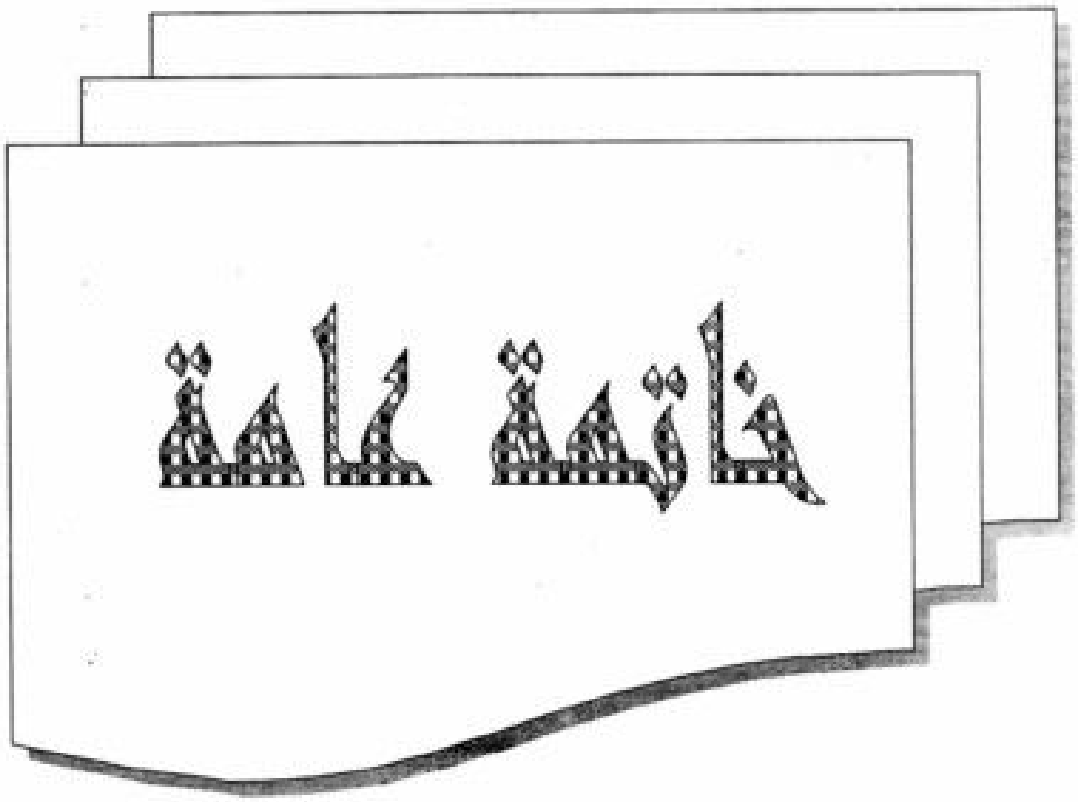
خاتمة عامة

وحري بنا أن نعترف لحقبة العصور الوسطى بالجميل وأن لا ننظر إليها نظرة تعال وازدراء ونعتبرها عصور تأخر وانحطاط فهذا الوصف لا يعبر عن حقيقة الأمر تعبيرا صحيحا ولعل هذه الفكرة المخلوطة عن العصور الوسطى ترجع للأثر الذي أحدثه انبثاق العصر الحديث بما شهده من تقدم -في أذهان الناس فقد كان لهذا الأثر ما جعله يحجب الماضي عنهم فنظروا إليه بالتالي على أنه ظلام كله (94).

وواقع الحال أن العصور الوسطى من أخصب فترات التاريخ الأوربي وعلى أساسها يمكن فهم التاريخ الحديث فأساليب الحياة تستمد أصولها من العصور الماضية التي لا تزال تفرض هيمنتها على العقول ومن أمثلة ذلك الإيمان بالخرافة والسحر الموجودة إلى اليوم في البلاد الأوربية (95). إضافة إلى انتشار التنجيم والشعوذة في أوساط الفلاحين ولا تزال المباخر في الكنائس منذ تلك الحقبة مستمرة على نفس الحال كطقس لطرد الأرواح الشريرة وبقية عقلية المتعبد هي نفسها لم تتغير (96)، كما ظلت الكنيسة المسحية التي يدين بها ملايين البشر أكثر الأديان انتشارا وتأثيرا على الإنسان الأوربي رغم معارضتها للعلم ومخالفتها لكل الحجج المنطقية التي انبثقت مع العصر الحديث (97).

ما يقال عن تاثير العصور الوسطى في الميدان الإجتماعي، يقال في مجالي السياسة والإقتصاد فقد بقيت نظم العصور الوسطى في المدن الإنجليزية على سبيل المثال دون تغيير حتى عام 1835م (98). ولم تخلوا الأرياف الإنجليزية من مظاهر العصور الوسطى خلوا تاما فلا تزال حياة الفلاح الأوربي تحمل الكثير من الأوضاع العتيقة التي لم يغير منها الزمن الشيء الكثير كما ورث العصر الحديث من هذه الحقبة أنظمة القانون المدني والكنسي والدساتير البحرية، والتجارية ونظام المحلفين وحق إطلاق سراح المسجون بدون محاكمة كما أعدت المحاكم والمجالس القضائية للدول أساليب الحكم الباقية إلى اليوم كما ظهر نظام الحكم النيابي كمجلس إسبانيا النيابي cortes، وجمعية الطبقات الفرنسية، والبرلمان الإنجليزي (99).

وفي المجال الإقتصادي نشأت نقابات الحرفيين والصناع التي لا تزال من المثل العليا عند رجال الإقتصاد، والمدافع الصلب عن حقوق العمال كما بقي أصحاب المهن والحرف كصناع الملابس والأساكفة وغيرهم يقومون بأعمالهم اليدوية في حوانيت خاصة مثل التي كانوا يقومون بها في تلك العصور التي من مخلفاتها أيضا الأسواق الكبرى والمواسم التجارية كما ورث العصر الحديث عمليات المصارف التي جلها من نظم العصور الوسطة المالية (100).

وفي الميدان العلمي-ورغم تواضعه- إلا أنه شمل استعمال طرق جديدة في الحساب، كالطريقة العشرية، وفكرة العلوم التجريبية وقسطا كبيرا من العلوم الرياضية، والجغرافيا، والفلك كما اكتشف

البارود واخترعت النظارات والساعة ذات الرقاص وتمت فتوحات هائلة في مجال الطب فنصف المستشفيات القائمة في أوربا الآن إنما هي من منشئات تلك العصور (101).

وفي تلك الحقبة عاش الكثير من رواد العلم كروجو بيكون الذي وضع أسس المنهج التجريبي (102). وعاش فيها بطرس بيلارد صاحب الفكر الحر وغيرهم من الشعراء والأدباء وفي هذه العصور نشأت الجامعات التي كانت وليدة الجهود العلمية السابقة هذه الجامعات التي شغلت مكانة مرموقة في المجتمع الأوربي في القرون الأخيرة من العصور الوسطى والتي لعبت دورا بارزا في نقل الغرب الأوربي نهائيا من عهد الجهل والظلمات إلى عصر العلم والمعرفة في عصر النهضة الذي مهد بدوره للعصر الحديث بمدنيته الزاهرة (103). ومعظم الجامعات الحالية بأوربا ما هي إلا نتاج لمجهودات الرواد ومفكري تلك العصور والتي ظلت تمارس دورها في نشر العلم والإشعاع الثقافي إلى يومنا هذا.

ملحق الخرائط والأشكال

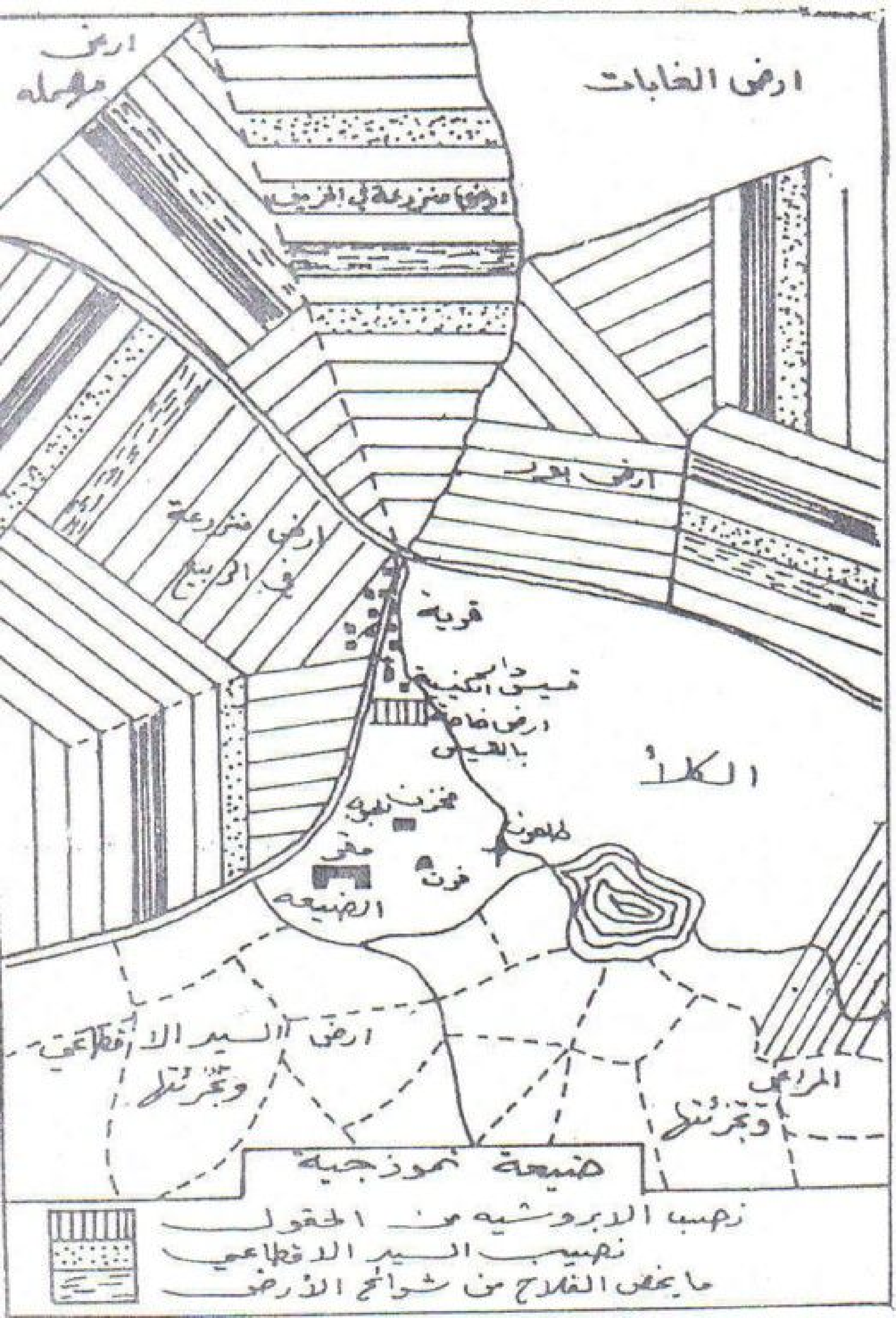
ارض
مغسله
ارض الغابات
ارض مزروعة في المرتفعات
ارض بور
ارض مزروعة في الوديان
قرية
قسيس الكنيسة
ارض خاص بالقسيس
الكلأ
مخزن للبن
مخزن الضيعة
فرن
طاحونة
ارض السيد الاقطاعي وبجرتل
المراعي وبجرتل
ضيعة نموذجية
نهب الدبروشيه من الحقول
نهيب السيد الاقطاعي
ما يخص الفلاح من شوالح الارض

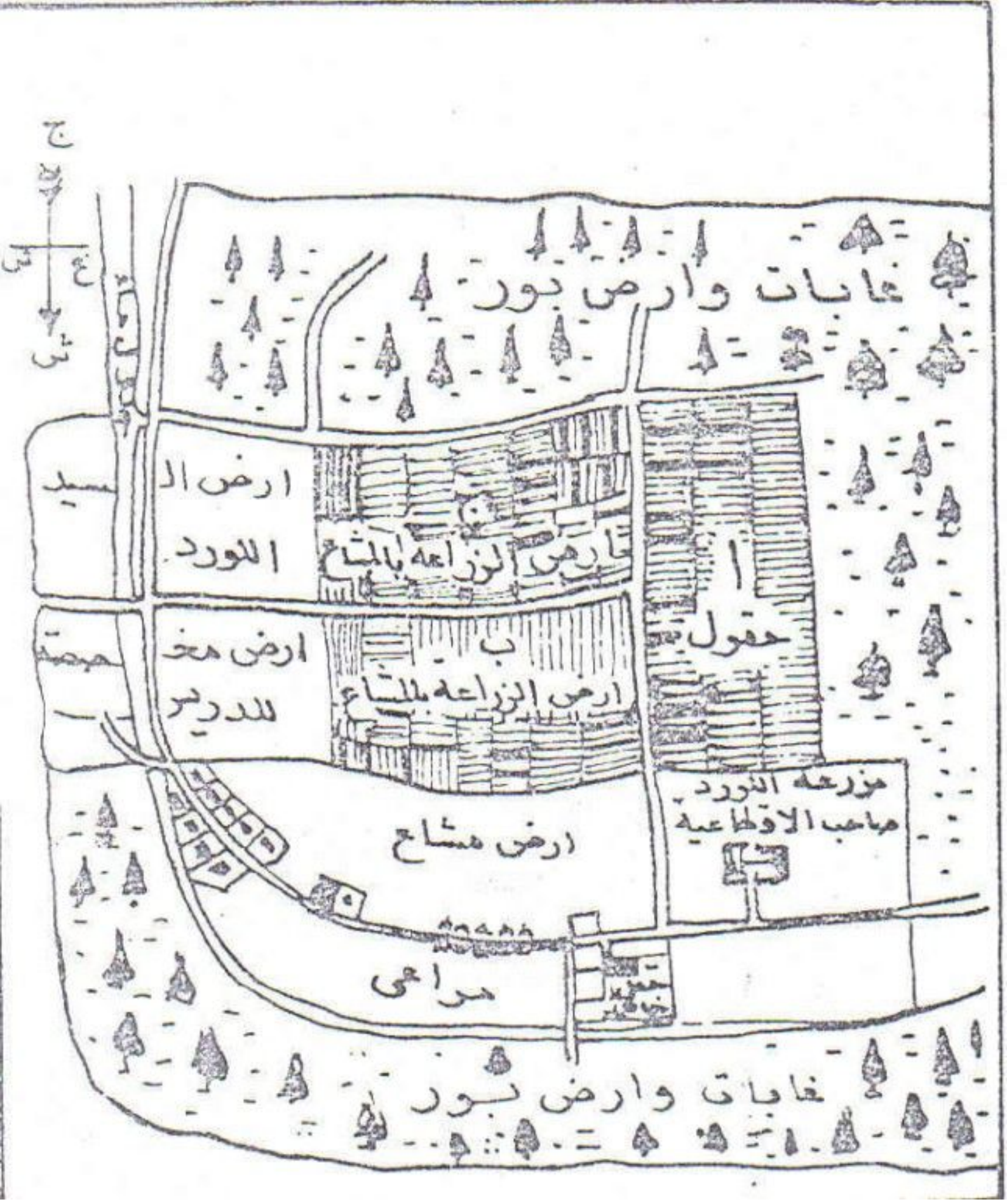
غابات وارض بور
ارض ال
الورد
ارض الزراعه بالمشاع
ا
حقول
ارض مخ
للدرس
ب
ارض الزراعه بالمشاع
مزرعه الورد
مراحب الاوطاعيه
ارض مشاع
مراعى
غابات وارض بور

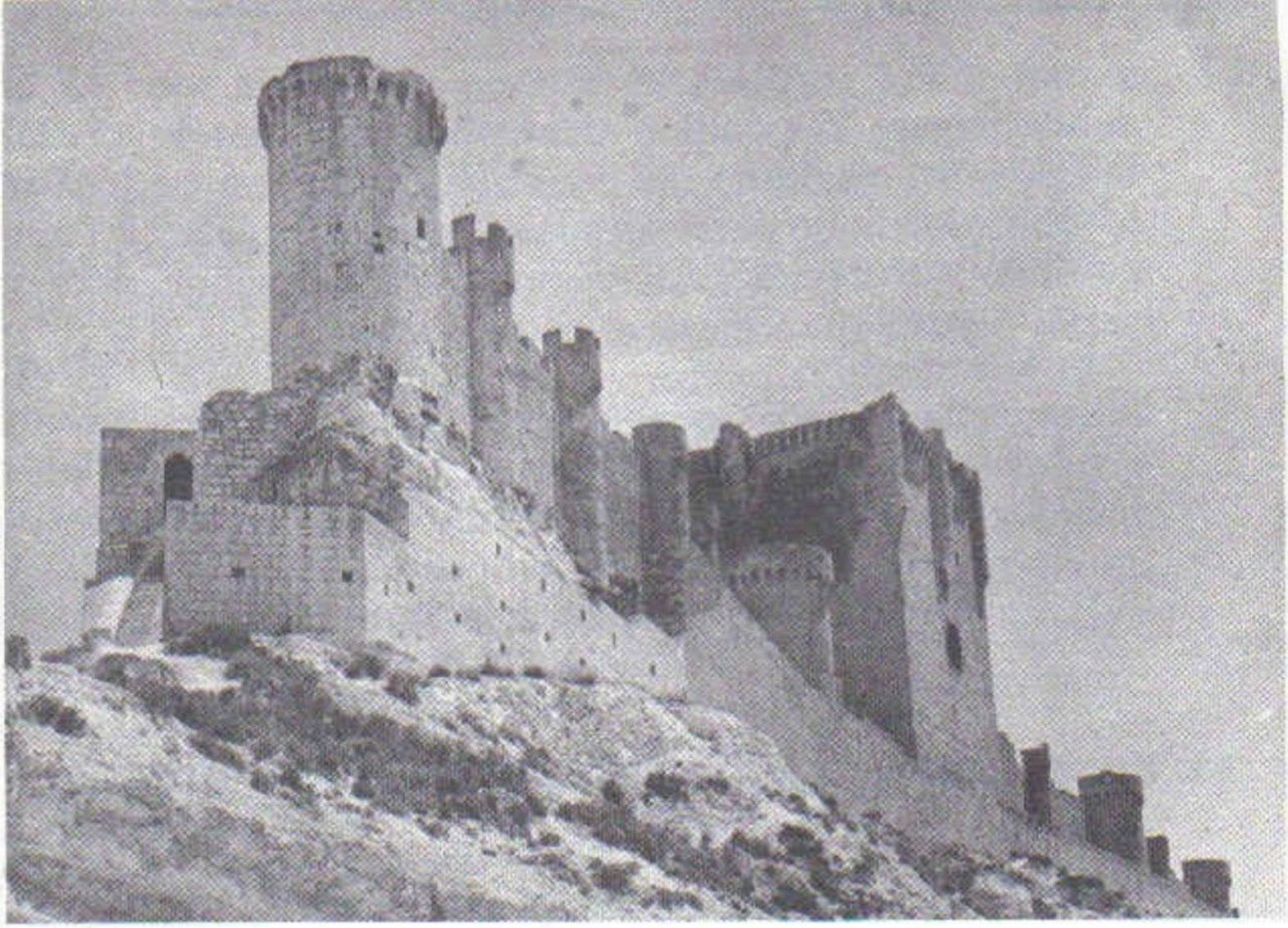

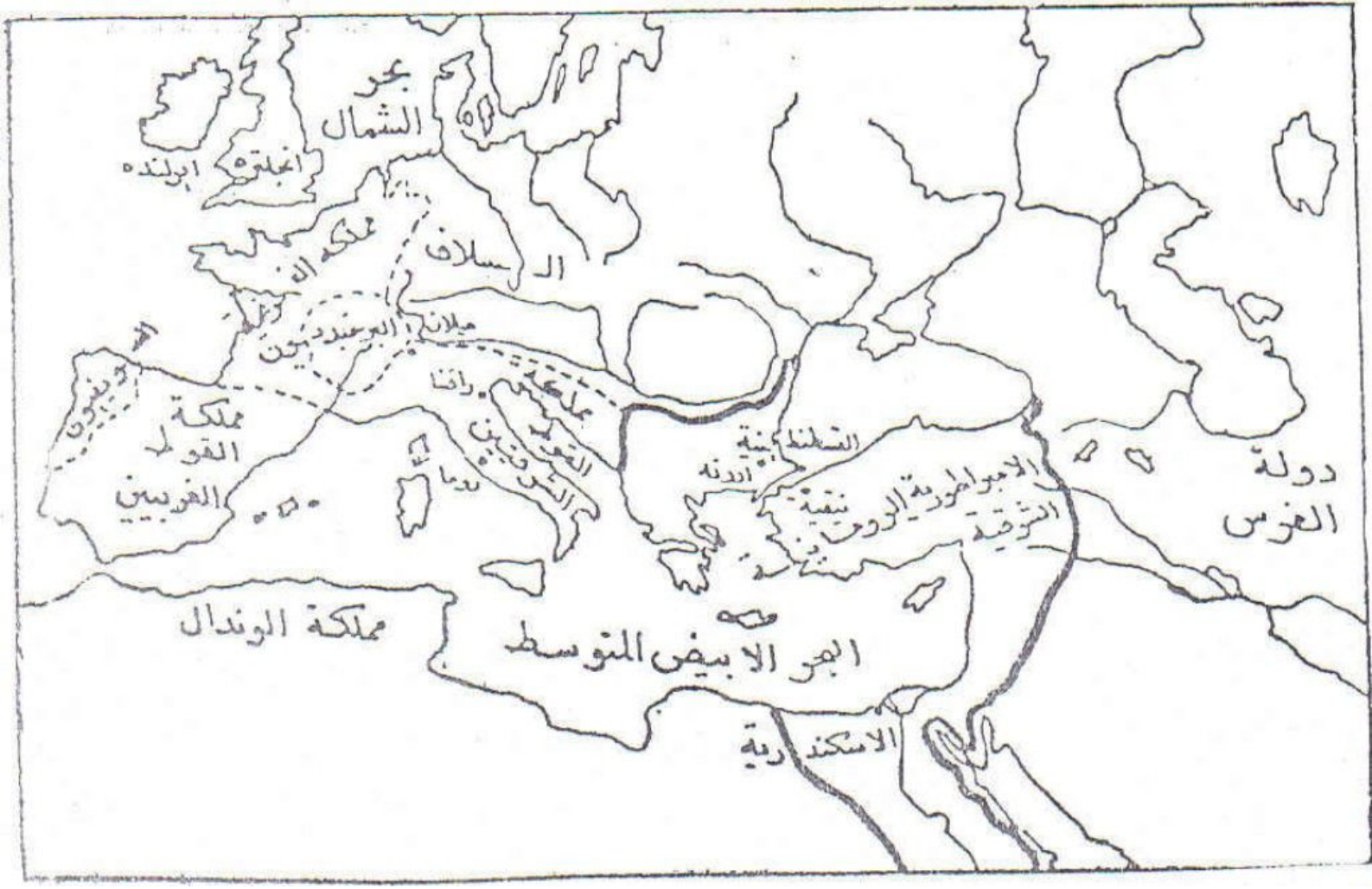
بحر
الشمال
انجلترة
ايرلنده
مملكة الا
السلاف
ميلانة
العرعبدديجن
راڤنا
مملكة
القوط
الغربيين
دوما
القوط الشرقيين
السلطنة
الجنية
الدنه
الامبراطورية الروم
شقية
الشرقية
دولة
الفرس
مملكة الوندال
البحر الابيض المتوسط
الاسكندرية

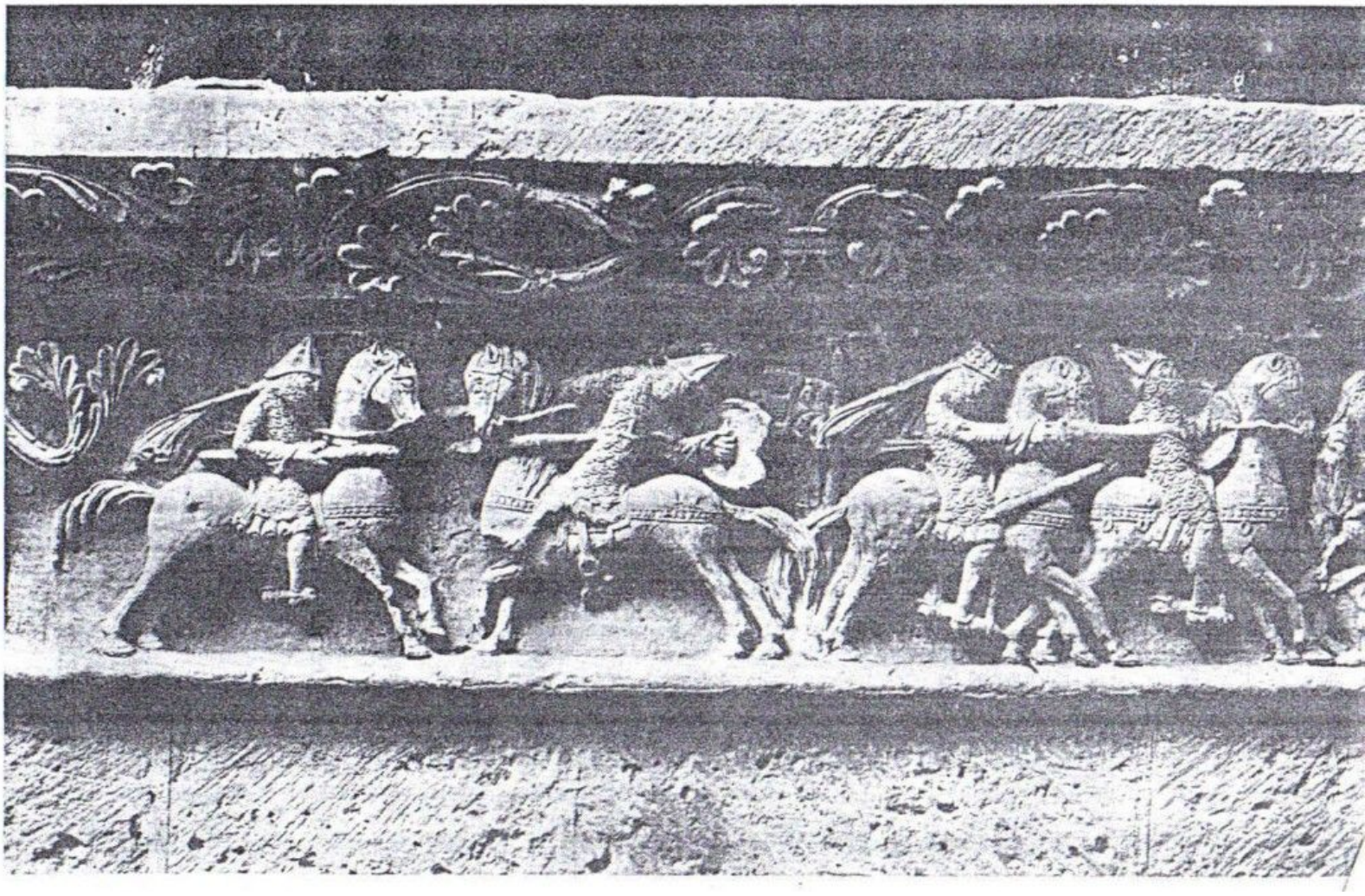

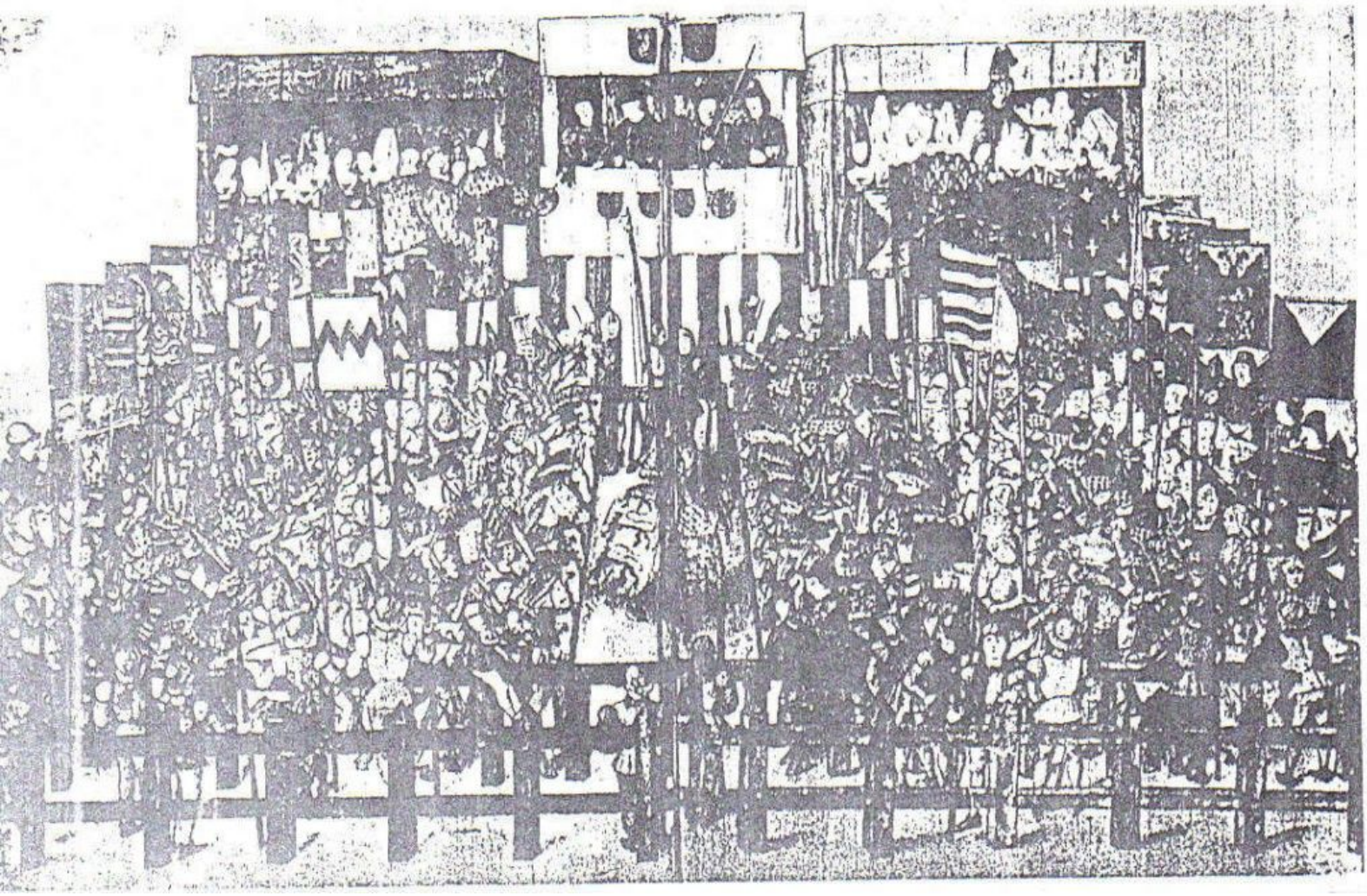

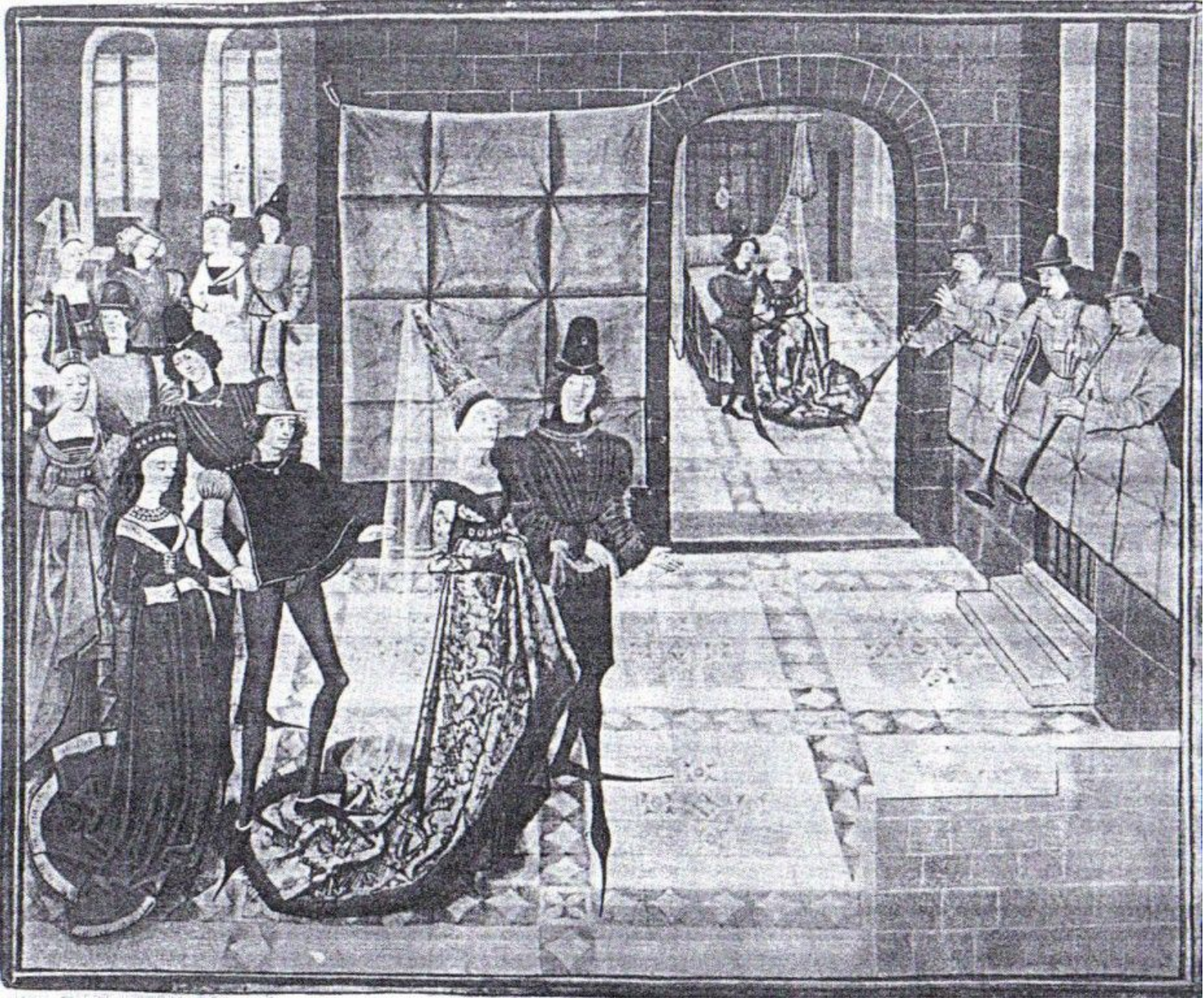

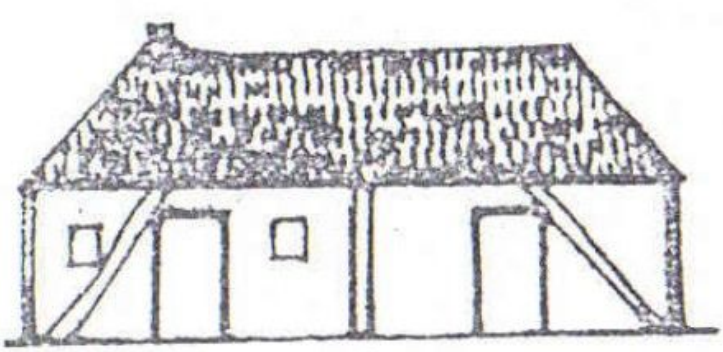

ا

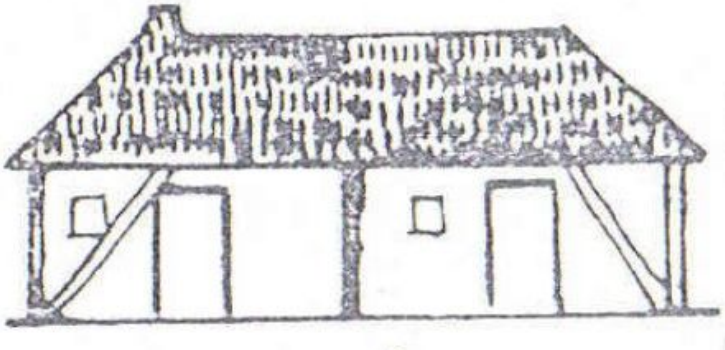

ب

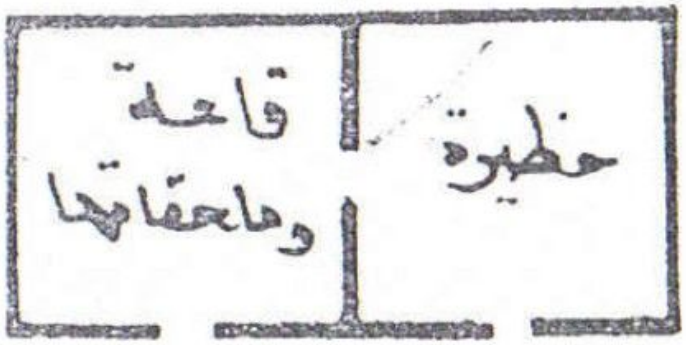

ا

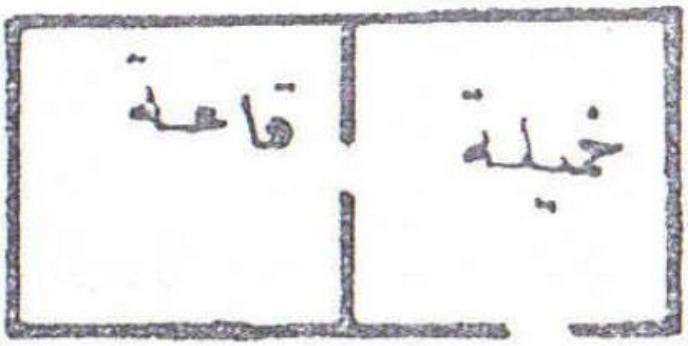

ب

البيبليوغرافيا

1- ديورانت (ول)، قصة الحضارة الجزء السادس من المجلد الرابع، القاهرة، 1958.
ديورانت (ول) قصة الحضارة الجزء الثالث من المجلد الرابع، القاهرة، 1964.
2- فشر (هربرت)، أصول التاريخ الأوربي الحديث من النهضة الأوربية إلى الثورة الفرنسية، القاهرة 1965.
3- بروي (إدوار) تاريخ الحضارات العام مجلد 3، بيروت، 1965.
4- المريني (الباز)، تاريخ أوربا العصور الوسطى، بيروت، 1968.
5- البطريق (عبد الحميد) ونوار (عبد العزيز)، التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فينا، بيروت 1974.
6- عاشور (سعيد ع الفتاح)، حضارة ونظم أوربا في العصور، بيروت، 1976.
عاشور (سعيد ع الفتاح)، أوربا العصور الوسطى النهضات والحضارة والنظم ج 2ن القاهرة 1980.
عاشور (سعيد ع الفتاح) أوربا العصور الوسطى التاريخ السياسي، ج 1، القاهرة، 1981.
7- هارتمان (ل.م) وبارلكلاف (ج)، الدولة والإمبراطورية في العصور الوسطى، بيروت، 1981.
8- كولستون (ج.ج) عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، بيروت،1981.
9- حمام (محمد)، الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال العصور الوسطى، الرباط، 1995.
10- حناوي (محمد)، دليل المصطلحات في التاريخ الأوربي الوسيط ج1، الرباط،2002-2003.
11- كانتوف (نومان.ف) العصور الوسطى الباكرة ق 3/ق9، القاهرة، 1993
12- حاطوم (نور الدين)، تاريخ العصر الوسيط في أوربا، د سنة، 1972
13- نسيم (جوزيف) نشأة الجامعات في العصور الوسطى بيروت 1981.

مدخل عام	1
الفصل الأول : أسباب ظهور النظام الفيودالي	4
مقدمة	5
الباب الأول : إشكالية التسمية ونشأة النظام الفيودالي وتطوره	6
I- إشكالية التسمية	6
1- الفيودالية	6
2- مصطلحات ذات الإرتباط	7
II- نشأة النظام الفيودالي وتطوره	8
الباب الثاني : ظهور النظام الفيودالي في الغرب وليس في الشرق	11
I- أحوال الشرق الإقتصادية قبل القرن العاشر	11
1- الإمبراطورية البيزنطية	11
2- العالم الإسلامي	12
II- أحوال أوربا الإقتصادية قبيل القرن العاشر	12
خاتمة	15
هوامش الفصل الأول	16
الفصل الثاني : خصائص النظام الفيودالي	20
مقدمة	21
الباب الأول : الأسس	22
I- الأرض	22
II-عقد التبعية	23
1- قسم الولاء	23
2- الحقوق والواجبات	24
الباب الثاني : الجانب العسكري والحربي	26
I- الفرسان	26
II- الأسلحة الفيودالية	26
III- الحصون	2728
IV- الحروب الفيودالية	

فهرس البحث

1- فترات الحرب	28
2- فترات السلم	29
الباب الثالث : الجانب الإجتماعي	31
I- طبقة رجال الدين	31
II- طبقة النبلاء الفرسان	32
III- طبقة الفلاحين والعمال	33
IV- المرأة في المجتمع الفيودالي	34
الباب الرابع : الجانب الإقتصادي	35
I- الضيعة	35
II- الإقتصاد الزراعي	36
1- طرق واستغلال الأرض	36
III- الضرائب الفيودالية	37
الباب الخامس : الجانب السياسي والإداري	39
I- السلطة التنفيذية	39
II- الكنيسة	40
III- القضاء	40
خاتمة	42
هوامش الفصل الثاني	43
خاتمة عامة	48
ملحق الخرائط والأشكال	51
البيبليوغرافيا	62
فهرست البحث	64